مجموعة
قصصية
(2)

حكايات عمانية



إهـــــداء ٢٠١٤

الاستاذ الدكتور خالد عزب

جمهورية مصر العربية

حكايات
عمانية

مجموعة قصصية

حكايات عمانية

الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان - مسقط)

للتواصل:

alghshamoman@gmail.com

هاتف: 98889342 - 99260386

ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320

www.altakween.com

تصميم الغلاف:

أحلام بنت محمد الرجبي

رقم الإيداع 331 / 2013

المكان في القصة العمانية[1]*

د. شريفة بنت خلفان اليحيائية

إذا كان الحديث عن دراسات نقدية وجمالية للمكان في النصوص الروائية العربية قليلا ونادرا نتيجة حداثة الموضوع وغياب التنظير، فإن الأمر ليس بأحسن حالا منه عند الحديث عن المكان في النصوص القصصية العربية. ولعله من المفيد تأكيد أن دواعي تغييب المكان من السرد القصصي واردة من عدم اكتمال الرؤية النظرية والنقدية إلى المكان في السرد الروائي - وهو الحلقة الأوسع والأعم - والتي باكتمالها ينتقل التنظير إلى المكان في القصة - وهو الحلقة الأضيق والأخص -. وفي هذا السياق يشير محمد السيد اسماعيل إلى أن أسباب تأخر اهتمام النقاد والباحثين في حقل الدراسات السردية بالمكان في القصة القصيرة وارد من تركيزهم على قضايا القصة وموضوعاتها (المحتوى والمضمون) دون الانتباه إلى العناصر الفنية. ويضيف قائلا إنه حين تم الالتفاف إلى المكان - مثله مثل العناصر الفنية – "كان تناوله - إن حدث - لايتجاوز التعامل معه بوصفه خلفية طبيعية لـ "الأحداث" أو "إطارا" محايدا يؤطر حركة "الشخصيات"، مما يترتب عليه تهميش دوره الفني، وإقصاؤه عن كونه عنصرا فاعلا داخل العمل القصصي ومتفاعلا مع غيره من العناصر.[2]

1 - * هذه الورقة هي جزء مستقطع من دراسة كاملة بعنوان «تجليات المكان في القصة العمانية: مقاربة موضوعاتية» منشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية: مجلس النشر العلمي، جامعة الكويتك ربيع 2004، العدد 86 ، السنة 22.

2 - إسماعيل، محمد السيد: بناء «فضاء المكان» في القصة العربية القصيرة، إصدارات دائرة الثقافة و الإعلام: حكومة الشارقة 2002. النص الفائز بالمركز الثالث في جائزة الشارقة للإبداع العربي: الدورة الخامسة 2001 في مجال النقد، ص 13 .

والمكان عنصر حيوي، ومهم في النص القصصي، وهو أحد المكونات الحكائية لعناصر البناء السردي، وأهمية المكان تتبدى من اعتباره تقنية فنية من تقنيات السرد التي يتبعها المبدع أو الأديب، وذلك «لأنه يمكن متلقي النص من الولوج الى العالم الداخلي للمكان الذي هو جوهر العالم الداخلي للنص الحكائي، وإدراك معالمه».[3] ولذلك فـ « إن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته».[4]

وإذا كان موضوع هذه الدراسة هو المكان في القصة العمانية فما لا شك فيه أنه موضوع صعب ومعقد؛ إذ يفتقد إلى الدراسات التنظيرية والمنهجية التي تقنن للمكان في النص السردي. وقياسا على ما سبق، فإن المكان في القصة العمانية لم يحظ باهتمام يذكر من الباحثين والمهتمين، على الرغم من حضوره الملحوظ في النتاج القصصي. والدراسة الوحيدة التي اهتمت بالمكان في القصة هي دراسة تطبيقية أكثر من كونها تنظيرية بعنوان «الجوس في المكان» لأحمد الشتيوي، وهي مازالت دراسة مخطوطة لم تخرج إلى النور وقت إعداد هذه الدراسة، وفيها يشير إلى أهمية المكان في القصة بقوله:

«المكان في القصة - هو حيزها، هو ظرفها، هو وعاؤها. والأحداث صفات للمكان الذي تتم فيه. فالمكان ليس مسرحاً جامداً ولا مجالاً ساكناً، بل هو حيٌّ متحرك له فعل الأحداث والشخوصخحث ، ولهم صلة عضوية بالمكان؛ فهم يتحركون في مجاله ويتأثرون به. وفيه تبرز حركاتهم ومواقفهم وحتى لغتهم

3 - حمد، مرشد: المكان و المنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف، حلب: دار القلم العربي، 1998. ص 61.

4 - باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، 1987، ط 3: مقدمة المترجم، ص 6.

ونمط حياتهم. والبطل القصصي - كالإنسان العادي - يتعامل مع المكان الذي يتحرك فيه».[5]

وعلى العموم يبدو المكان في القصة العمانية ذا خصوصية من عدة جوانب: الجانب الأول اذا ما اقترن حضوره ببيئة معينة، وتعالق مع أناسها، و تداخل ليشكل هوية تلك البيئة بساكنيها و بمكوناتها. و تتبدى طبيعة المكان وجماليته وفنيته من خلال العلاقة التوحدية الحميمة التي تربط بين المكان والإنسان؛ اذ لا يمكن تخيل الانسان بدون وجود «المكان». والحق أن علاقة «الانسان» بـ «المكان» علاقة تأثير متبادل؛ فالانسان يمارس فاعليته في «المكان» بل يغير من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود «المكان» فيمارس تأثيره على الانسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل.[6]

وبما أن العلاقة بين الانسان والمكان علاقة تأثير متبادل فإن المكان يستمد خصوصيته وملامحه من الانسان ساكنه، ويمده هذا الأخير من صفاته وملامحه، « فالانسان من خلال حركته في المكان، يقوم برسم جماليات هذا المكان، والمكان بدون الانسان، عبارة عن قطعة من الجماد، لا حياة ولا روح فيها. .كذلك فان الانسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه، يأخذ من الطبيعة وطقوسها وفصولها ما يساعد مشاعره وعواطفه ومزاجه على رسم المكان».[7]

ومن جانب آخر تضفي دراسة المكان في النص القصصي لونا مميزا ونكهة تختلف باختلاف الأمكنة المتناولة وهوية ساكنيها وخصوصيتهم، لأن المكان

5 - الشتيوي، أحمد:تجليات المكان في القصة العمانية. دراسة مخطوطة غير منشورة، ص 2.

6 - بناء «فضاء المكان» في القصة العربية القصيرة، ص 13.

7 - النابلسي، شاكر، جماليات المكان في الرواية العربية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر 1994، ص 96.

« يعني بالنسبة للانسان أشياء متعددة؛ فهو المأوى والانتماء ومسرح الأحداث، حتى ان المكان الذي ينتمي اليه الانسان يتخذ بعض الأحيان طابعا مقدسا، لأن العلاقة بين الانسان والمكان علاقة متجذرة. والمكان الحيز لايمكن أن يعني شيئا كبيرا، وانما المكان الذي يعين هو المكان التجربة».[8]

وأخيرا، تطمح دراسة المكان في النص القصصي المعاصر في عمان إلى الكشف عن الخصوصية والطبيعة المميزة للبيئة المحلية والمجتمع وأفراده بهوياتهم وتنوع ثقافاتهم وفئاتهم ومصالحهم بحسب اختلاف الأمكنة؛ فهناك «المكان الحنيني الذي يذكرنا بالماضي أكثر مما يذكرنا بنفسه».[9] وهذا المكان الحنيني في القصة العمانية بدا واضحا من خلال صورة ذهنية للمكان/ القرية/ الريف ؛ اذ لتلك البيئة الريفية القروية الجبلية خصوصية ونكهة لا تخطئها الأحاسيس والنفوس، وانعكست تلك النهكة على النصوص القصصية في عمان. وقد منح توظيف القرية العمانية في القصة خصوصية وأجواء معتقة بروائح القدم والماضي من خلال صور المباني الطينية والأزقة الضيقة والممرات الجبلية والأودية والأحياء التي تشتم منها روائح الطفولة والحنين والفطرة البشرية. في المقابل تبدو البيئة الساحلية التي تمازجت مع المدينة نتيجة التداخل بين البحر والسهل بفئات ثقافية وهويات مختلفة أكسبت المكان هوية ورائحة تميزه عن البيئة الأولى، ولكل تأثيره وحضوره في النص القصصي والروائي والشعري.

8 - ربابعة، موسى: جماليات الأسلوب والتلقي، الأردن: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع 2000، ط1، ص64.

9 - جماليات المكان في الرواية العربية، ص15

إضافة إلى المكان الحنيني الذي يكتسي بالطابع الاسطوري، توافرت أمكنة أخرى في القصة العمانية واقعية واجتماعية ونفسية ؛ فالبحر والجبل والصحراء والمدينة والقرية والبيت والشارع والمقهى والنافذة... الخ كلها أماكن تشكل الفضاء النصي العام للقصة العمانية.

وعمان - بما هي مكان جغرافي واجتماعي وسياسي - لم يكن حضورها متميزا ضمن قائمة بلدان الخليج التي شكلت فيها الثروة النفطية طفرة سريعة ومفاجئة في التحولات التي شهدتها المنطقة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية. ولعل عدم تضمين عمان في القائمة كفيل بفهم المغزى، كما أشار إلى ذلك عبدالحميد المحادين بقوله:

«صحيح أن المدن الخليجية بدأت تتحول إلى مدن عصرية كمدينة الكويت والمنامة ودبي وأبوظبي والدمام. وبدأت التحولات الاجتماعية تنتج أدبها في ذات وقت تحولها. ولعل انفجار النفط بالكيفية التي انفجر بها سارع بتطوير البيئة الاجتماعية والمدنية في الخليج، وبشكل سريع وطفروي» .[10]

وتجدر الاشارة الى ان دراسة المكان في القصة العمانية - موضوع الورقة الأصلية - الاطار التطبيقي - ارتكزت على عينة من النصوص القصصية وردت في جملة من المجموعات القصصية التي تمثل المشهد القصصي العماني اليوم:

- نافذتان لذلك البحر: يحيى سلام المنذري، 1993.
- بوابات المدينة: محمد سيف الرحبي، 1993.
- مواسم الغربة: خليفة بن سلطان العبري، 1994.

10 - المحادين، عبد الحميد: جدلية المكان و الزمان و الإنسان في الرواية الخليجية، بيروت: إصدار المؤسسة العربية للدراسات و النشر:2001 ص10

- المطر قبيل الشتاء: سالم بن خلفان آل تويه، 1994.
- حبس النورس: يونس بن خلفان الأخزمي، 1996.
- يوم نفضت خزينة الغبار عن منامتها: محمد بن خلفان اليحيائي، 1998.
- هذياني الدمى: خالد العزري، 1999.
- رماد اللوحة: يحيى سلام المنذري، 1999.
- حد الشوف: سالم بن خلفان آل تويه، 2000.
- مقاطع من مسيرة لبنى إذ آن الرحيل: جوخة بنت محمد الحارثي، 2001.
- رائحة لا تشبه أحدا: بشرى بنت خلفان الوهيبي، قيد الطبع.

وكما أنه لابد من تأكيد القول إن المكان (مجال الدراسة في هذه الورقة) ليس المكان بوصفه حيزا جغرافيا وطبيعيا وواقعيا من الفضاء العام، أو المكان المفتوح كالبحر والمدينة والقرية والصحراء فحسب، لكن الدراسة تشمل الأمكنة الأسطورية العجائبية، والأمكنة النفسية/ الاجتماعية، والأمكنة الذهنية. التخيلية، كل ذلك من خلال العلاقات الانسانية والاجتماعية والأخلاقية المتصارعة داخل شخوص النص وأحداثه، لذلك أعد المكان وعاء للمتناقضات تماما كما هو الحال بالنسبة للنفس البشرية الحاوية لجملة المتناقضات. وهذا ما يقصد بانزياحات المكان كما يشير الى ذلك معاوية البلال:

«أصبح المكان بحيرة بركانية تقذف من بواطنها المعاني، وبالتالي انزاح المكان من استخدامه المألوف في النصوص الابداعية باعتباره مجرد جغرافيا للمشاهد السردية يتحرك بين اشيائها الانسان ضمن علاقة ساكنة وسلبية لاتعني سوى وظيفتها. ونهضت علاقات أكثر عمقا بين الانسان والمكان؛ علاقات

نفسية ووجودية وتاريخية وايمائية، في نسيج متناه للنص الجمالي، علاقة تؤسس للامركزية الانسان العالم». [11]

والى جانب الأمكنة الاسطورية والجغرافية والنفسية والاجتماعية التي حضرت بصورة واضحة في القصة العمانية، برزت كذلك عملية الرحلة والتنقل داخل الأمكنة وخارجها، وهي عملية تحدد طبيعة المكان الحاوي لكافة التناقضات، شأنها شأن الرحلة في النفس الانسانية بما تحويه من ضديات وتناقضات بين النفس الذاتي/ الاجتماعي الآخر، بين الدخول/ الخروج في المكان، بين الرحيل/ العودة، بين البيت/ الشارع، بين سلطة الأب/ طموح الأبناء، بين المدينة/ القرية أو الريف، بين المقهى/ العمل.. الخ كلها تجليات للمكان بفضائه الجغرافي والاسطوري والنفسي والمتخيل وبتناقضاته مع الذات والعالم، وتصارعه الداخلي والخارجي. وبدا المكان بذلك الحضور وكأنه وعاء يحوي أصناف المتناقضات، وبدا أكثر بصورة ذلك الكائن البشري الجامع لشتى التناقضات والتصارعات النفسية والاجتماعية والفكرية ؛ إذ «داخل بنية المكان ملامح وسمات ديموغرافية وطوبوغرافية ومناخية وعلاقات انسانية تتوافق وتترابط حينا، وتتنافر وتنفصل حينا آخر، في لحظات من الصراع، متجلية بصورة فنية مباشرة وموحية دلالية، تحمل في مضمونها وطياتها أبعادا مختلفة ومتنوعة للتمازج الانساني كخلية حية وفاعلة في لبنة المجتمع وأمشاجه المعقدة». [12]

أخيرا، يمكن القول ان للمكان في القصة العمانية تجليات واضحة تبدو

11 - البلال، معاوية: قراءة في إستراتيجية المعنى/ المكان في القصة السودانية الحديثة، مجلة نزوى، ع 22، ص22.
12 - عبد الملك، بدر : المكان في القصة القصيرة في الإمارات. أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1997،ص 264

كالتالي:

1 - المكان الأسطوري والعجائبي في القرية.

2 - المكان الذهني / المتخيل، والفضاء الاجتماعي/ النفسي من خلال ثنائية المدينة والقرية.

3 - المكان الواقعي / الطبيعي من خلال الحركة والتجوال داخل المكان (الأسواق/ المقاهي/ الشوارع).

4 - الصراع داخل المكان من خلال علاقات التضاد في الأمكنة بين المكان النفسي/ المتخيل والمكان الواقعي/ المجتمع/، بين الذات والأنا/ المرأة و الرجل / و بين سلطة القديم/ الجديد، و بين سلطة السيد /العبد.

1 - المكان الأسطوري والعجائبي في القصة العمانية

إذا كان المكان في الدراسات السرية العربية - بشكل عام - قد شكل أزمة مصطلح، فإن تنوع المصطلحات والدلالات أصبحت ظاهرة ملازمة انسحبت على فضاءات المكان. فالمكان الأسطوري - على سبيل المثال - لم يسلم من تلك الظاهرة فسمي بمسميات متنوعة وإن بقيت دلالته ثابتة. ومن مسميات المكان الأسطوري نجد مصطلح العالم الأسطوري والمتخيل/ والعالم الغرائبي والعجائبي. وسمي كذلك بالبعد الأسطوري التخيلي والبعد الذهني. وتتداخل كل هذه المسميات لتشكل في الأخير دلالة ثابتة في القصة العمانية، تنطلق من فضاء القرية الأسطوري. وفضاء القرية في الأساس - بوصفه مكانا جغرافيا/ واقعيا/طبيعيا/ واجتماعيا - شغل ولا يزال مساحة كبيرة من الفضاء الأسطوري

العام، حتى غدت القرية مرجعية للأمكنة الاسطورية ؛ منها تنطلق، واليها تعود، وفيها تتشكل.

وتشير دلالة المكان الأسطوري الى انه مكان له نكهة ذهنية متخيلة في نفوس ساكينيه ومشاعرهم، توحي بشعور مخيف ومتهيب وأحاسيس منفردة. والأمكنة الأسطورية هي كذلك «الأماكن التي لامرجعية لها، ولا ترتبط بزمن ما، بل هي أماكن معومة في التاريخ، زمانيا ومكانيا. وهذا يعني أنها أماكن خيالية، وكل ما يداخله الخيال في وجوده يمتلك شيئا من الأسطورة» . [13]

وفي هذا المكان الأسطوري تتداخل الأشياء الواقعية مع المتخيلة، لترسم في النهاية صورة ذهنية لحكاية خرافية تقترب من روح الاسطورة، وتبتعد عن الجوانب الواقعية بما فيه مرجعية الزمان والمكان «لأنهما من لوازم عالمنا الواقعي» . [14]

ويبدو من التعريف السابق لمفهوم المكان الأسطوري أنه مكان - بشكل عام - لا مرجعية له، لا زمنيا ولا مكانيا، وان بدت تلك المرجعية المكانية واردة ذهنيا ومرتبطة بأمكنة واقعية وجغرافية ومقترنة بأسماء أمكنة محددة. والمكان الأسطوري في القصة في عمان يتحقق في نموذج مكاني ثابت و موحد اتفق عليه كتاب القصة في عمان، وهو اتفاق لايختلفون فيه عن أدباء عمان وشعرائها. يبدو ذلك النموذج في القرية العمانية لا سيما قرى المناطق الداخلية في عمان (نزوى - بهلا - نقصة بهلا) وهي قرى عرف عن أهلها السحر والشعوذة، والاعتماد على الخوارق في توظيف قوى الجن والسحر. وغدت هذه القرى نموذجا ذهنيا

13 - جدلية المكان و الزمان و الإنسان في الرواية الخليجية، ص192

14 - إبراهيم، نبيلة: أشكال التعبير في الادب الشعبي. القاهرة: مكتبة غريب،1989،ص88

يستلهمه الشعراء والكتاب في اطلاق العنان لخيالهم الجامح للتحليق في أجواء أسطورية غرائبية.

والقرية العمانية بمكوناتها وسماتها وحقيقتها ليست أسطورية بل «هي رمز لمكان واقعي سطره الروائي (القاص) لأمر ما، وأسقط عليه هذه الكوارث».[15] والخوارق من خلال حكايات الجن والسحرة والموت ليقول شيئا ما يتعلق به. ومن ثم أصبحت القرية مكانا أسطوريا بمعنى الكلمة. فالأزقة الضيقة بين البيوت الطينية والأفلاج، والفلاحون الذين يتناوبون على سقي مزارع النخيل الباسقة الطول، والجبال العالية المحيطة بتلك القرية هي جميعها أمكنة أسهمت في خلق الجو الأسطوري والعجائبي من خلال صورة تنقل الساحر بين أزقة القرية لاقتناص فريسته، ومن ثم ليقدمها قربانا في مهرجان السحرة الذي يتم فيه بيع ذلك المسحور.

وبذلك يبدو أن الأسطورة في القصة العمانية قد اتخذت من القرية مكانا تتموضع فيه، واستلهم روح أهل القرية وسلوكياتهم بوصفها مادة زاخرة لأسطرة ذلك المكان، حتى بدا بصورته الذهنية الموحدة مكانا أسطوريا في القصة العمانية، وعليه تركز المكان الأسطوري في القصة العمانية في القرية؛ انطلق منها وانتهى اليها دون أن يتجاوزها إلى أماكن أخرى. وفي سياق تأكيد القول إن القرية العمانية هي عالم العجائب يقول أحمد الشتيوي:

«يمكن أن نعتبر قصة فتاة نزوى الشعرية علامة مميزة للجو العجيب الذي تغطس فيه القرية العمانية في الليل. فالناس بعد كدح النهار وجد العمل

15 - أشكال التعبير في الادب الشعبي، ص 205

يركبون خيالهم اذا اظلم الكون، فيجمع بهم الى عالم الأوهام والأحلام والأشباح والأغوال. فيلفهم جو من الخرافة. ولم تكن هذه الخرافة عديمة المفعول، سالبة الأثر، بل على العكس، فإن النفوس تألفها إلى درجة تصديق أحداثها، وتمثل وقائعها، وتشخيص أفعالها». [16]

ومن المفيد الإشارة إلى أن أهم ما يميز المكان الأسطوري للقرية في القصة العمانية هو عنايته الواضحة بقضية الحياة بعد الموت، وعلاقة الساحر بالمسحور أو بالمبعوث حيا من الموت بعد أن تم بيعه في مهرجان السحر وبيع المغيب (المغصوب). فهذه القضية تعد من القضايا الملحة في النتاج الأدبي العماني، وهي تعكس ظاهرة نفسية واجتماعية وعقائدية للمجتمع العماني قديما وحديثا ،من ثم يعد توظيف تلك القضية تأصيلا لعالم المغاصيب ،السحر والخوارق. ويؤكد الشاروني أن ذلك العالم هو عالم انساني سيطر على المخيلة الشعبية وأصبح أحد مصادرها ويرى أنه عالم:

«يتميز بقوانينه الخاصة به التي تمتد جذورها إلى ما ابتدعته المخيلة الشعبية على مر قرون وأجيال، مضافا اليها لمسات الفن. والمغاصيب أشبه بالسوائم التي لابد أن يرعاها غاصبوها والا ماتت ميتتها الثانية والأخيرة، ومن الممكن أن يرى الأهل طيف المغصوب حين ينزله مالكه البلاد. والمغاصيب يكونون في أول أمرهم أصحاء، ثم لا يلبثون أن ييبسوا بعد ذلك شيئا فشيئا.. والمغاصيب غائبو العقول، ولا يكادون يعون مما حولهم شيئا، فهم لا بالأحياء ولا بالأموات». [17]

16 - تجليات المكان في القصة العمانية. ص21

17 - الشاروني، يوسف: «الرواية العمانية و خصوصية الرواية الخليجية» مجلة فصول، مج16/ع4، ربيع 1998، ص 195.

وتبدو صورة المسحور أو المغيب في المخيلة الشعبية العمانية مشوهة مختلة الموازين في شخص معتوه مجنون مغبر الشعر رث الملابس، يعيش في مكان يبعث على الاشمئزاز والتقزز إلى أن يموت مرة أخرى، فيتحول قبره إلى مزار يؤمه الناس للنذور القرابين. تلك هي الصورة الذهنية/ الأسطورية التي شاعت لمسحور القرية العمانية كما يؤكدها يوسف الشاروني بقوله «أبصارهم زائغة، شعورهم طويلة مشبعة بالغبار. كانوا أحيانا مربوطين ثلاثة أو أربعة أو واحدا بنفسه في مكان محدد. أجسامهم نحيلة، عظامهم بارزة، جلودهم مدببة كشوك الطلع الشيطاني، حفاة عراة، وكانوا يأكلون الأوراق الخضراء التي يحضرها لهم غاصبوهم».[18]

كما ارتبطت القرية/ المكان الأسطوري في المخيلة الشعبية العمانية بغياب المرجعية الزمنية، وان بدت تلك المرجعية في الماضي الغارق في القدم بدون توثيق زمني؛ اذ اقترن ذكر مصطلح «القرية» بذكريات الماضي، والحنين والشوق المتقد لمرابع الطفولة والطبيعة الفطرية التي جبل عليها أهل القرية في تآلفهم وتداخلهم الاجتماعي. واقترنت «القرية» كذلك بالحياة الزراعية من خلال التركيز على مفردات تلك الحياة وعناصرها، من مثل ذكر النخيل، و«مواسم القيظ» و«الفلج».

ولعل غياب المرجعية الزمانية يقوي ويعزز الهوية الأسطورية للمكان/ القرية في النص القصصي. يشير ياسين النصير في دراسة له بعنوان «ثقافة البلدات» إلى لغة النصوص التي تتناول القرية والمدينة والبلدة بما هي حيز مكاني،

18 - الرواية العمانية، ص 194

معتبراً ان «العلاقة بين القرية والبلدة في النصوص التي تكتب عنهما(..) قد هيمن عليها الماضي بثقله، الميثولوجي والفلكلوري والغرائبي».[19]

والقرية بوصفها مكانا أسطوريا واجتماعيا ونفسيا ظل حضورها متحققا ولم يغب أبدا في القصة العمانية، وان كان قد شهد في فترة الثمانينات انحسارا ملموسا لصالح الغلبة والهيمنة لحضور المدينة، والانبهار بحياتها بوصفها ثنائية ضدية، بالدرجة التي جعلت المبدعين يركزون على المدينة ويغفلون من ثم - ولو إغفالا لا شعوريا - استحضار موضوع القرية.

والقرية بما هي مكان أسطوري لم ترد في النتاج القصصي في عمان في فترة التسعينيات من القرن العشرين بصورتها البسيطة المجردة التي لا تحتمل غير معناها الاصطلاحي، بل كانت موضوعا شغل النتاج القصصي، واكتسب خصوصية جعلت منه أنموذجا تعارفت عليه التجربة القصصية في عمان. وبرزت القرية في النتاج القصصي كله في هيئة نمطية موحدة وثابتة؛ فهي قرية محاطة بأشجار النخيل والجبال العالية؛ قرية اقترنت في الغالب الأعم بأجواء السحر والجن، قرية تستحل لحم أبنائها لتقتسمه في مهرجان السحر، ومن ثم يتحول الأبناء المسحورون الى كائنات بشرية مسلوبة العقل والإرادة تتهم بالجنون الى أن يموت الساحر، وتعود الحياة من جديد الى الروح المسلوبة، وينسب اليها بعد الموت مرة اخرى صفة الولي الصالح الذي تقام على ضريحه النذور. والقرية في ارتباطها بالأجواء الأسطورية ترتبط بالليل الحالك الذي مضى نصفه الأول.

19 - النصير، ياسين: ثقافة البلدات، مجلة أدب و فن، العراق.

وتبدو القرية بصورتها المحددة مهمة وحاضرة في التجربة القصصية: «فالقاص حصر اهتمامه في القرية، فهي حيز مهيمن عليه في جميع أحواله، خارجا عنها وداخلا فيها، راضيا بها ورافضا لها» .[20]

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما المقصود بمصطلح القرية وحضوره أو غيابه في القصة القصيرة في عمان؟ ماذا نعني بالقرية؟ وما الخصوصية التي من الممكن أن يمنحها حضور القرية في القصة العمانية؟

المدينة والقرية - بوصفهما طرفي معادلة - تمثلان ثنائية ضدية متلازمة في الإبداع الأدبي بصفة عامة قصصيا كان أم شعريا. وحضور المدينة بضوضائها وصدماتها الثقافية ظاهرة فنية وموضوعاتية في النتاج القصصي لمرحلة الثمانينات في عمان؛ فالكل منبهر بالتغيرات المدنية الجديدة، وغارق في الذاتية والفردية التي استدعت حضور ثيمات الغربة والحنين والعزلة، والشعور بعدم الانتماء والمشاهد السوداوية التي اصبحت تطبع النتاج الأدبي والفكري. وعليه تولدت لدى المبدع روح مائلة الى رفض الواقع اليومي والمعيشي، والهروب الى عالمه الذاتي. وكانت النتيجة أن غيب وهمش حضور القرية، بوصفها موضوعا إبداعيا، ولم يعد يذكر الا في المقام الذي يتطلب الحنين الى الماضي بذكريات الطفولة والحبيبة القروية بوصفها اول تجربة حب عاشها القاص في مرحلة مراهقته قبل أن تجذبه حياة المدينة، وتغرقه في تجارب وعلاقات جديدة. حتى اذا تم التشبع باستحضار المدينة بكل جوانبها بوصفه نوعا من مسايرة المدينة والتحديث حدث النكوص والعودة الى منابع القرية لغناها بموضوعات

20 - تجليات المكان في القصة العمانية، ص.3

لم تمسسها يد مبدع، وبقضايا اجتماعية وسلوكيات حياتية لم تغيرها المدينة واختلاط الأعراق والأجناس، وتفاصيل يومية دقيقة مازالت الفطرية هويتها، ومازال أهل القرية يمارسونها. فكان حضور القرية بتفاصيلها اليومية مصدرا بكرا وأرضا غنية وفيرة ركن اليها القاص، واستغل جميع دقائقها وتفاصيلها. وهذا ما تمثل في نصوص النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين. يعرف مختار أبوغالي مجتمع القرية فيقول:

«في المجتمع القروي يعيش مزارعون مستقرون، يخططون وينظمون أعمالهم.. آخذون في اعتبارهم مواسم الحصاد، طموحاتهم محدودة مقصورة على الحاجي والضروري، وهم يتجاوزون خيبة الأمل.. بعيدون عن التوترات النفسية الناجمة عن الاحتكاك بالآخرين. وأهل الريف أكثر تجانسا، ولهم خصائص نفسية تميزهم عن الحضريين، كالتمسك بالقواعد الأصيلة للسلوك الجمعي والعرف.. كل ذلك نقيض لخصائص المجتمع المديني الذي يبرز الفردية، وسرعة التحرك الاجتماعي، وعدم التجانس وتمزق العلاقات الروحية». [21]

وبالتركيز على دراسة المكان في النص القصصي الحديث في عمان، فإن الحديث عن خصوصية حضور القرية يبدو من خلال الأنموذج الذهني للقرية لدى كتّاب القصة في عمان. هذا الأنموذج الذهي تحدد من خلال علاقة المكان/ القرية بالسحر لدرجة أن جعلت القصة القصيرة من القرية العمانية حكاية شعبية مليئة بقصص السحر والخرافة. فغدت القرية فضاء مكانيا وجوا قصصيا تسيطر عليه الأجواء الاسطورية والغرائبية المتعلقة بالسحر

21 - أبو غالي، مختار: «المدينة في الشعر العربي المعاصر». المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب: سلسلة عالم المعرفة: (196) ابريل 1995، ص31.

و«المغايبة».[22]

ويتضح للقارىء من خلال عينة النصوص المنشورة في مرحلة التسعينات أن هناك أربع صور ذهنية تحدد القرية/ المكان الأسطوري الغرائبي:

1 - قرية زراعية تحف بها أشجار النخيل العالية وأشجار الليمون وتحيط بها الجبال التي تشكل وسيلة دفاع وحفاظ على هويتها وتراثها الذي لا يقبل المساس والتغير. وبما انها قرية زراعية فانها تعتمد على الأفلاج، حيث يتناوب أهلها على توزيعه فيما بينهم. يشير الى هذه الطبيعة كل من يحيى سلام المنذري في نص «حمالة الحطب» من مجموعة «رماد اللوحة»[23]، وخالد العزري في نص «القرية التي لاتعرف السحرة» من مجموعته «هذيان الدمى»[24] ومحمد سيف الرحبي في نص «المسحور» من مجموعة «بوابات المدينة»[25] بدرجات متفاوتة.

فالقرية في نص «حمالة الحطب» مكان لا يبعث الا على مشاعر الهدوء والسكينة من خلال استخدام مفردات العشب الأخضر الناعم، وزخات المطر الخفيف المتراقص كأغنية، وصورة الحمامات الملونة التي تبعث على السلام وأمن القرية، وصوت خرير الماء في الفلج. هي كلها صور تنتقل من النص لتبعث في نفس المتلقي الهدوء والسكينة. يصور المنذري المرأة تنتابها لحظة المخاض ولا تجد مكانا تلجأ اليه إلا زريبة حيوانات وسط مكان تحفه أشجار

22 - مفردة «المغايبة» هي مفردة محلية شائعة في المخيلة الشعبية العمانية تستخدم للدلالة على روح الشخص الذي مات بطريق السحر ثم خرجت روحه من جديد.

23 - المنذري، يحيى سلام: رماد اللوحة، دمشق: دار المدى 1999

24 - العزري، خالد: هذيان الدمى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1999

25 - الرحبي، محمد سيف: بوابات المدينة، مسقط: مطابع دار جريدة عمان للصحافة و النشر، 1993.

الليمون «وأشجار الليمون تشهد ولوج امرأة الحطب داخل الغرفة.. حطت حولها حمامات ملونة سرعان ما تحولت الى رفيقاتها من النساء اللواتي جئن لجمع الحطب وملء الجرار بالماء من الفلج.. المكان المعشب والفلج بعيدان عن البيوت، المطر كأنه فقط يحيي البلاد بنغمة غنائية قصيرة، ويتوارى خلف الجبال البعيدة المغطاة بالغيوم»[26]

في حين أن نص العزري يبعث في نفس المتلقي صورة مخيفة مرعبة من خلال بث مشاهد الموت والليل المظلم ونعيق البوم وأعالي الجبال البعيدة وتسلل الضوء الشاحب الذي يلتمع وسط الظلام الكثيف؛ يقول النص «قرية نائمة، كان نصف الليل الأول قد مضى، وكانت أشجار النخيل العالية تنصت وحدها لنعيق البوم قادما من أعالي الجبال... وثمة ضوء شاحب يلتمع وسط الظلام الكثيف عند نهاية منبع ساقية الفلج، ربما كان قنديل أحد المزارعين متجها يقتفي الفلج..».[27]

أما نص الرحبي فيلتقي مع النصين السابقين حيث يعقد علاقة جدلية بين القرية بوصفها فضاء مكانيا أسطوريا لا مرجعية محددة له، و الليل بوصفه مستوى زمانيا، لتكون نتيجة تلك العلاقة هي بعث الجو الأسطوري المهيأ للسحر في نفس المتلقي. فـ «طرقات القرية التي لا تنام إلا على دقات طبول السحرة..أي صراخ هذا الذي تسمعه القرية اللعينة؟؟ و أي نشيج يجعل الآذان تغمض عينها خوفاً و رهبة».[28]

26 - رماد اللوحة، ص51
27 - هذيان الدمى،ص14.
28 - بوابات المدينة، ص42

2. القرية بوصفها مكاناً زراعياً تحفه النخيل والأشجار، و تحيط به الجبال العالية التي تعزله عما وراءه جغرافياً. مكان مهيأ لأن يكون عالماً أسطورياً يبعث الوحشة في النفس. فالليل المظلم الكثيف الذي ينصت لنعيق البوم القادم من الجبال العالية هو ليل يمهد لمشهد خروج الساحر راكباً ضبعته و من ثم تعلن القرية موت أحد أبنائها. كما في نص «القرية التي لا تعرف السحرة» و نص «المسحورة».

3. القرية بوصفها مكاناً، والليل الحالك بوصفه مستوى زمانياً عوامل تضافرت لتقدم صورة الساحر و ثيمة الموت. فهيئة دخول الساحر إلى القرية في نص الرحبي إشارة إلى هويته. في المقابل، تقنية النص لدى العزري تقترب من الدلالات الضمنية و الخفية، إذ يحتمل النص أكثر من تأويل لدرجة أن الأمور تكاد تلتبس في النص. واتفق النصان على الإشارة الصريحة لثيمة السحر و بيع المغيب.

4. غلبة المشاهد الأسطورية في النصوص المقترنة بأجواء السحر و السحرة، كتلك التي في نص «القرية التي لا تعرف السحرة» خاصة أن مشاهد النص موغلة في الغرائبية من خلال سير الأحداث و التنقل في الأمكنة الأسطورية التي لا تجد لها مرجعية مكانية في ذهن القارئ سوى المرجعية المتخيلة. و كذلك نص «المسحورة». يمكن القول إن الأحداث القصصية المرتبطة بأمكنة أسطورية عجائبية - لا سيما تلك المرتبطة بحكايات السحر والمغيب و الموت- هي أحداث أقرب إلى الحلم و الخيال منه إلى الواقع، لذلك فهي

تحلق عالياً في فضاء أسطوري معتق بروائح الأساطير و الخرافات.[29]

ثانياً: الصراع بين الفضاء الذهني المتخيل و الفضاء الاجتماعي النفسي من خلال ثنائية المدينة و القرية. يمثل حضور المدينة و القرية في عينة النصوص القصصية المختارة في هذه الدراسة ثنائية ضدية، إذ غالباً بين المكانين علاقة متصارعة ومتناقضة نفسياً وجغرافياً واجتماعياً. إذ تتداخل الأمكنة في السياق النصي الواحد وهي تقنية تكشف عن طبيعة العلاقة الضدية بين المكانين. يوضح مرشد أحمد آليات التداخل: «تداخل مكانين في سياق واحد بنتيجة تداعي الذكريات مرة، وإلى الموازنة بين مكانين في سياق واحد مرة أخرى. ليكشف مدى المفارقة الشاسعة بينهما على المستوى الحضاري. وهذه التقنية الفنية ترسخ المعالم التي يتصف بها المكان، وتحدد مكانته بين الأمكنة الأخرى في ذاكرة المتلقي، كما أنها تجعل النص الحكائي يضج بتجليات الحياة».[30]

فعينة النصوص القصصية المختارة تصور بداية التحول والانتقال من حياة القرية الفطرية البسيطة إلى حياة البلدة/ أو المدينة المعقدة التي تجلب التغيير والتحديث في طباع أهل القرية البسطاء وسلوكياتهم ليرتدوا رداء التمدن والتحديث، الذي يفترق عن حياة أهل القرية الغارقين في سلسلة العادات والأعراف. وتبدو أسباب العلاقة المتصارعة بين القرية و المدينة « تشهد في بداية حياتك الفردية ثمة من يذهب باحثاً عن العمل في المدينة، تاركاً قريته وأرضه الزراعية التي لم توفر له المعيشة. بعد فترة تلح تغييرات جذرية واضحة على أسرته وملابسه وسلوكه ولسانه. ثم تجد بعد ذلك قافلة من الشبان تبحث

29 - العنتيل، فوزي: عالم الحكايات الشعبية. الرياض: دار المريخ، 1983، ص:167-195

30 - أحمد، مرشد: «المكان و المنظور الفني في روايات عبدالرحمن منيف، حلب: دار القلم العربي،1998، ص.97

عن عمل ما خارج القرية محتذية حذو من سبقها...الخ».[31]

فالطبيعة المتصارعة بين نفسية سكان القرية وسكان المدينة ناتجة عن الموارد الطبيعية المتاحة لسكان كلا المكانين. لذلك فرؤية سكان المدينة لسكان القرى تتمثل في أنهم فقراء أميون يجهلون أدنى أساسيات التحضر والسلوك المديني الذي يتمتع به أهل المدينة. في المقابل، فإن الخوف والحذر والتوجس هو الهاجس المسيطر على نفسية سكان القرى في رؤيتهم لأهل المدينة والذي لا يؤمن شرهم لأنهم ماديون، تجردوا من الأخلاق الحسنة لصالح المادة و المنفعة الفردية. وهذه العلاقة تسمى بنظرية القولبة أو التنميط وتبدو واضحة في نص العزري "مفاجأة العاصمة" ونص المنذري "بدايتك فجر وماء". إذ يصور النصان العلاقة التضادية بين ابن الريف وأهل المدينة، وهي علاقة تتضح جلية من خلال تآمر المدينة بأهلها وموظفيها على أبناء الريف، فيخرج النص بصورة منفرة يلقيها على المتلقي ويمنحه شعورا بالقبح الخفي والكراهية تجاه المدينة بوصفها مكانا منفرا.

أخيراً، يمكن القول إن تأكيد نظرية القولبة في القصة العمانية دليل واضح على أن القصة العمانية تسير في الخط والاتجاه نفسه الذي يسير عليه النتاج الأدبي عربيا وعالميا.

ثالثاً: المكان الواقعي الطبيعي من خلال الحركة والتجوال داخل المكان في "الأسواق، المقاهي، الشوارع، البيت و أجزائه".

31 - ثقافة البلدات،ص 4

يتخذ المكان الخارجي أطراً مختلفة متناقضة ومتصارعة؛ فهناك المقاهي العامة التي تمثل مكانا داخليا اجتماعيا يلتقي فيه الناس بعضهم ببعض، مكانا نفسيا يجد المرء فيه نفسه معزولا عن العالم الخارجي. وكل مكون من مكونات المكان هو مكون داخلي وخارجي في آن، بحيث يشكل ثنائية ضدية" فالفناء مثلا يعد "داخلا" بالنسبة إلى "الشارع".. لكنه يعد "خارجا" بالنسبة إلى "الغرفة". أما "الشارع فيعد "خارجا" بالنسبة إلى "الدور" و"داخلا" بالنسبة إلى "الحي" أو المدينة" أو "القطر".[32]

وبذلك فكل مكان هو داخلي و خارجي بحسب الأمكنة المحيطة به، فالأسواق الشعبية المكتظة بالناس الذين تتصارع فيهم رغبات ونزعات نفسية ومادية واجتماعية وغيرها هي أمكنة خارجية، تحوي أسواقا ومحلات صغيرة وبشرا يتصارعون، وهي كذلك أمكنة داخلية أحد مكونات الحي الشعبي أو المدينة والقرية..الخ. ويوجد في المكان الخارجي/ الفضاء الواسع كذلك الشارع الممتد الفسيح الذي يشعر المرء فيه بالخوف والرهبة من الموت والخطر، وهناك الزقاق الضيق/ الداخلي والسكك المتعرجة بين البيوت والمباني والمحلات ويشتم فيها المرء رائحة الماضي والتاريخ.

وتبدو أهمية الشارع بمكوناته الداخلية والخارجية في كونه فضاء مكانيا حافلا بالمتناقضات والمتصارعات النفسية بين الأنا والآخر، وتبدو تلك الأهمية من كون "الشارع هو الفضاء المفتوح، المكان الذي يمر به الجميع. والذي توجد فيه الأنا متحفزة ومتوترة بوجود الآخرين، حيث تتضارب وتتقاطع الانفعالات

32 - بو جاه صلاح الدين: الشيء بين الوظيفة و الرمز، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،1993، ط1،ص 35

والأهواء وتحتد المشاعر بتوترات الأسئلة المصيرية وصراع الإرادات والمصالح والمطامع. فتبدو الأنا في حالة هذيان وتداع، تلتقط تفاصيل الشارع وأشياءه و هي في حالة حوار مرير مع ذاتها، فالشارع مصنع للأحداث الكبيرة ومسرح لها".[33]

وتتحقق أهمية المكان/ الخارج بمحتوياته المختلفة في نص "الطابور" من مجموعة " يوم نفضت خزينة الغبار عن منامتها" لمحمد اليحيائي، إذ تتحرك أحداث النص من خلال الرحلة في المكان/الشوارع والأزقة والتنقل من مكان لآخر وكأن المتلقي أمام مشهد سينمائي أو ضمن جولة سياحية. كما يتبدى مستوى الرحلة والتجوال في المكان الواقعي/ المدينة في نصين آخرين هما "يوم صمت في مطرح" ليونس الأخزمي ونص "حين تركنا مطرح" لسالم آل تويه.

رابعاً: الصراع داخل المكان من خلال علاقات التضاد والتصارع بين المكان النفسي المتخيل والمكان الواقعي/ المجتمع، بين الذات و الأنا / وبين الرجل/ المرأة وبين سلطة القديم/ الجديد وبين سلطة السيد/ العبد.

تعد الذات الإنسانية مكانا داخليا تتصارع فيه الرغبات والنزعات والأهواء بين ما تريده الأنا/الذات/ الضمير الفردي وما يريده الآخر/ الهو/ النحن/ الضمير الجمعي. وحضور المكان النفسي في النص القصصي في عمان كان واضحاً. وهو حضور جسد الصراع النفسي والاجتماعي الذي تعيشه الأنا في صراعها مع الآخر. وتتخذ الأنا والذات أشكالا وأطرا مختلفة فيبدو صراع الأنا متمثلا من خلال المواجهة بين سلطة الرجل/ المجتمع و المرأة /الآخر،

33 - قراءة في إستراتيجية المعنى/المكان في القصة السودانية الحديثة.

وكذلك بين سلطة السيد والعبد/ الآخر، وبين سلطة العادات والتقاليد المتوارثة والحديث المستورد.

وتتضح علاقة هذا الصراع في نص "نافذتان لذلك البحر" للمنذري إذ يستهدف النص بناء التناقض بين حياة المرأة /الفتاة، بين الداخل المتمثل في البيت/ الغرفة/ الذات وبين الخارج المتمثل في البحر/ الآخر؛ إذ «يشكل الداخل والخارج انقساما جدليا»[34]؛ فعلاقة المرأة مع الداخل هي علاقة إنغلاق وشعور بالأمان والحماية على حين يتمثل الخارج في الخطر والانفتاح. هذه العلاقة التضادية بين الغرفة بوصفها مكاناً والبحر والأمكنة الأخرى هو التضاد بين المحدود واللامحدود. ويتوزع النص كاملا بين الداخل والخارج، فيه ينتقل القارئ من خاص إلى عام و العكس، و طبيعة العلاقة التبادلية بينهما؛ " فالداخل ينفتح على الخارج، والخارج على الداخل".[35]

أما العلاقة المتصارعة بين النظرة السائدة إلى الموروث القديم/ الحاضر، وبين الطموح والرغبة في التغيير / المجهول الغائب؛ نظرة قيم و تقاليد لجيل قديم، تتمثل في السلطة و السيطرة من الأب/ الأم و خوفهما من نظرة الناس الشامتة والمليئة بالعار و الفضيحة، و بين طموح و رغبة من الأبنة /الأبن إلى كسر تلك الصرامة من خلال تحقيق الطموح بالوصول إلى إبراز صوت الذات سواء من خلال قرار الزواج أو الرغبة في مواصلة التعليم. الملاحظ من أطراف العلاقات المتصارعة أنها أطراف تمثل جميعها البعد الاجتماعي والسياسي والموروث العقائدي المقترنة بالمكان الواحد/ القرية نتيجة أحادية التفكير

34 - جماليات المكان،ص191

35 - الشيء بين الوظيفة و الرمز،ص38

و النظر، لأن القرية تبقى المكان المعزول الذي لا تخالطه طوائف أو فئات اجتماعية مثل المدينة.

أخيراً، خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج المرتبطة بتوظيف المكان في القصة العمانية

أولاً : إن توظيف المكان في القصة العمانية جاء متحققاً في عدد من الأمكنة المختلفة: من بينها المكان الأسطوري أو العجائبي الذي برز بصورة واضحة تميزت به القصة العمانية, هذا التميز و التفرد في توظيف العالم الأسطوري جاء في هيئة أنموذج ذهني تمثل في "القرية" الزراعية والجبلية بأزقتها الضيقة ونخيلها و جبالها العالية و بالتالي لم يتحقق المكان الأسطوري في القرية الساحلية.

فكانت تلك "القرية العمانية" مثالا احتذاه كتاب القصة في عمان برعوا في رسم عوالم أسطورية تحلق في أجوائها الضبابية قوى سحرية خارقة. وليست كل القرى العمانية أمكنة أسطورية تتوافر فيها الأحداث الغرائبية والشخصيات الأسطورية الخارقة، إنما هناك صور ذهنية محددة وواضحة للقرية ذات الأجواء الأسطورية وهي صورة ذهنية تصور تلك القرية وملامحها وسماتها التي تسيطر عليها النواحي الخيالية و الغارقة في التعقيد والغموض.

ثانياً: برز المكان الذهني/ المتخيل في القصة العمانية من خلال ثنائية المدينة والقرية وهي بالضرورة ثنائية ضدية تكشف الطباع و السلوكيات لدى سكان كلا المكانين والعلاقات المتصارعة بينهما. كما توصلت الدراسة إلى أن القصة العمانية لم تخرج من ثوب نظرية القولبة الذي ارتدته وأكدت عليه القصة العربية إجمالاً، بل سارت على نهجها ورأت في القرية مكانا ساذجا يثير

العطف والشفقة في حين رأت في المدينة مكانا مخيفا يثير القلق والتوجس.

ثالثاً: من غير المألوف أن تقوم الدراسة على التركيز على "المكان" دون أن تتطرق إلى المكان الواقعي/ الطبيعي من خلال عملية الرحلة والتنقل داخل وخارج الأمكنة. فقد وظفت القصة العمانية أمكنة خارجية و داخلية كالمقهى، والشارع، والبيت والأسواق.. الخ. وبينت خصوصية كل منها وعلاقته بالآخر الذي يحيط به. وخلصت أن لكل مكان خارجي دلالة وخصوصية داخلية في نفسية ساكن ذلك المكان تعكس طبيعة العلاقة بين المكان وساكنيه.

رابعاً: لم تغفل الدراسة التطرق إلى المكان- بوصفه وعاء حاويا للمتناقضات البشرية وهنا بدا المكان كالإنسان أو النفس البشرية المحملة بجميع المتناقضات النفسية والفطرية والاجتماعية و العقائدية. وبدت تلك الخصوصية في القصة العمانية من خلال العلاقات الاجتماعية والنفسية بين الرجل والمرأة و بين الأنا والآخر وبين سلطة القديم و الجديد وسلطة السيد والعبد.

ختاماً، يمكن تأكيد أن القصة العمانية لم تغيّب أو تهمش "المكان" ولم تنظر إليه النظرة السابقة في الدراسات النقدية التي تتصل بالقصة العربية وإنما نظرت إلى المكان نظرة مختلفة إلى حد ما عن النظرة السابقة. إذ لم يأت "المكان" مجرد إطار يحوي شخصيات النص وأحداثه بل هو عنصر محرك و فاعل في سير أحداث النص و عاكس خصوصيته على الشخصيات و الأزمنة و الأحداث في النص، كما يسهم بدور لا يقل عن أدوار العناصر الأخرى المكونة لأي نص أدبي قصصياً كان أو روائياً.



بشرى خلفان

شاركت في الكثير من الملتقيات الثقافية والمؤتمرات داخل وخارج السلطنة. ومن اصداراتها "رفرفة" عام 2004 و"غبار" عام 2008 و"صائد الفراشات الحزين" عام 2010

إفــــك

فِي صباحِ الرَّابعِ عشرَ مِنْ شعبانَ تحلَّقَ أهلُ القريةِ حولَ الرِّجالِ الثَّلاثةِ في أسمالِهِم الباليةِ وحَصَاهُمُ الذي جمعوه من أوديةِ السِّحرِ السَّبعةِ ونثروه على التُّرابِ الأسودِ الذي جلبوه من سيوحِ المغايبة. كانتْ عِصِيُّهُمُ التي من أغصانِ السَّمُرِ الرَّقيقةِ تَقْسِمُ التُّرابَ إلى مربَّعاتٍ يقرأون في تكويناتِها مصائرَ النُّفوسِ التي من حولِهِمْ وتحولاتِ أرواحِها.ا

دَنَتْ منهم سودوه بنت بخيت خادمةُ البيت العود[1] وهم منهمكون في عملِهم، فتوسَّعَتِ الحلْقةُ. وَضَعَتْ في يد كلِّ واحدٍ منهم قرشًا، فهزُّوا رؤوسَهم وتبِعوها. استقبلتْهم العودهْ وقد حَجَبَتْ نصفَ وجهِها بوقايتها[2]. جلسوا وخطُّوا على تراب الحوش بعِصِيِّهم خطوطَ القدرِ غيرَ المقروءةِ، ثمَّ قالوا للعودهْ:

السّرّ مدفون في أرض الجن، لكن كل شاة ولها رعاتها، وتحذّري الدّمّ ما يغسله ما سبع بحور.

في ذلك الوقتِ كان العود يكمُنُ للظِّباءِ في وادي العيون مع أولادِه التِّسعةِ، الذين يتناوبون الحراسةَ والقنصَ والخدمةَ، وعندما جاءه الخبرُ توضَّأَ وصلَّى مع أولادِه صلاةَ الغائبِ، وتوسَّدَ بندقيّتَهُ البوعشر التي نَدِمَ لاحقاً على وَهْبِهَا محمود.

ومحمودُ فتىً بهيُّ الطَّلعةِ كان في الرَّابعةَ عشرةَ من عمرِه عندما جاءهم خبرُ عائشة بنت علي في وادي العيون، فتطوَّعَ تلك اللَّيلة للحراسةِ، مصغياً لما حولَه من أصواتِ الرِّيحِ الزَّاحفةِ على حصى الوادي، خشخشةِ أغصانِ السَّمُرِ، حركةِ دبيبِ كائناتِ اللَّيل، خَفْقِ أجنحةٍ وهميَّةٍ، صدى تَكَسُّرِ سلاسلَ يَجُرُّها الماردُ العاصي، هَمْسِ حوقلةِ أبيه وهو نائمٌ في فراشِه.

عندما زُفَّتْ إلى أبيه كانتْ عائشة بنت علي في مثل سِنِّهِ، وقد رآها وهي تَهْرُبُ تلك اللَّيلةَ من حجرةِ أبيه لتنامَ تحتَ بطنِ أُمِّهِ العودهْ التي وعدتْها بالحمايةِ ووعدتْ أباه أنْ تُسلِّمَها إيَّاهُ حالَ نُضْجِها، ثمَّ أطلقتْها لتلعبَ معه وهي تُراقِبُها بعيني نَسْر.

1 العود: الكبير.
2 وقايتها: غطاء رأسها.

تُوُفِّيَ علي بن عبدالله شيخُ المداخيل قبلَ سنةٍ، وعائشةُ صغرى بناتِه ضُمَّتْ إلى بيتِ عمِّها بعدَ أنْ أرسلتْ أمَّها بعيداً لتلحقَ بأهلِها. ولأنَّ بيتَ العمِّ كان صغيراً ولا يَحتمِلُ فماً جديداً على الصِّينيَّة وافق عمُّها على زواجِها من العود شيخِ قبيلةِ العناوين مقابل مائتي قرشٍ لا غير.

عائشةُ التي لم تتجاوزِ التِّسْعَ سنواتٍ لم تلبسْ ثوبَ عرسٍ أبداً، بل زُفَّتْ في صمتٍ وبلا زينةٍ، وكان جسدُها ضئيلاً وشعرُها يتدلَّى حتَّى أسفلِ ظهرِها في ضفيرةٍ سوداءَ طويلة. وكانتْ أمُّه العودة تَغسِلُ لها شعرَها مرَّةً كلَّ أسبوعٍ في حمَّامِ الفلج، ثمَّ تُطيِّبُه بالورس والياس وماء الورد الجبليِّ، وتَلُفُّ ضفيرتَها في كعكةٍ حتَّى لا يظهر من تحت لحافِها. وكانتْ تُعَلِّقُ لِحافَها على غصنِ الغافةِ عندما يلعبان فتفوحُ من ضفيرتِها رائحةُ الوردِ الجبليِّ والياس. وعندما تعتلي الأرجوحةَ يدفعُها عالياً ويغرقُ في مراقبةِ ضفيرتِها التي تنفلتُ وتطيرُ مع دفقاتِ الهواءِ ورائحةِ الياس التي تغمُرُه. وعندما يعتريها الخوفُ من قوَّة دفعاتِه تصرخ به: بسّ يا محمود... بسّ هبّطني. وعندما تَهْبِطُ يَنطلِقُ صفيرٌ مبهمٌ من رئتيها ولا تقدر على الكلام فتدفعُهُ في صدرِه بيدِها الواهنة لكنَّه لا يقع وهي تَقِفُ في مواجهتِهِ وتُحاوِلُ دفعَهُ ثانيةً ولا يقع، وعيناها الغاضبتان تزدادان غضباً وصوتُ تنفُّسِها يزداد غَوْراً ودَفْعَتُها تزداد ضعفاً وهو يُحِبُّ دَفَعَاتِها وضَغْطَ باطنِ كفَّيها على صدرِه... فتركُضُ إلى حُضْنِ العودة.

في ليالي الشِّتاءِ كان ينام في المَبْرَزِ مع سليمان وحمود وعلي وحمد- أخوتِه الذين لم يتزوَّجوا بعد- أمَّا حمدان وسعيد وصالح وحميد فكانوا

ينامون مع زوجاتِهم وأولادِهم في غرفِهم التي يَضُمُّها حوش البيت العود مع غرفِ زوجاتِ أبيه الثَّلاث وغرفةِ العودهْ التي لها مَبْرَزٌ مسقوفٌ بالسَّعَفِ ومدعَّمٌ بأنصافِ جذوعِ النَّخل ينام فيه هو وإخوته.

لكنَّ عائشةَ لم تكنْ تنامُ في غرفتِها التي في أقصى الحوش والتي كانتْ لزوجةِ أبيه الثَّانيةِ أم سليمان وحمود التي تُوُفِّيَتْ قبل سنتين وهي تضع، بل تنام عند العودهْ، حيث تَقُصُّ عليها العودهْ الأخبارَ والحكاياتِ الغريبةَ عن الشُّيوخِ والأمراءِ الذين يمتطون رواحلَهم ليضيعوا إلى ما لانهاية في الدُّروب ويقاتلوا أطيافَ الجِنِّ والعفاريتِ، وعن البنات اللاتي يتربَّين في بطونِ حبَّاتِ الرُّمَّان الضَّخمةِ ويستشهدن بحلّ الحليل على أزواجِهنَّ المسحورين.

عائشةُ تستيقظُ كلَّ صباحٍ لتلعبَ معه ناسيةً قسوتَه في اليومِ السَّابق، وتركبُ الأرجوحةَ وتسمحُ له بدفْعِها في الهواءِ بعدَ أنْ يُقْسِمَ لها بأنَّه لن يدفَعَها بقوَّةٍ عالياً، ثمَّ لا يلبثُ أنْ ينسى قَسَمَهُ وتبدأ هي في الصُّراخ... ثمَّ تنزلُ غاضبةً وموهَنَةً وتركُضُ إلى حُضْنِ العودهْ لتشتكيه، والعودهْ تَسْتَمِعُ إليهما بصبرٍ كلَّما جاءاها يختصمان.

العودهْ امرأةٌ طويلةٌ حتَّى إنَّها أطولُ من العودُ بقليلٍ، قويَّةُ البِنْيَةِ ولها أنفُ صقرٍ وعينا نَسْرٍ كان بإمكانِهما رؤيةُ زوايا البيتِ من مكانِها عند عتبةِ المبرز، لكنَّهما لم ترياه وهو يختبئ وعائشةَ وراءَ أشولةِ الرُّزِّ والتَّمرِ في المخزنِ ليلعبا بالصَّدَفِ الذي جَمَعَهُ من الشَّاطئ عندما ذَهَبَ وأخوتَه لجلب الرَّمل، والعودهْ لم تَرَ توهُّجَ عينيه عندما أسكرتْهُ رائحةُ الطِّيبِ في ضفائرِ عائشةَ، ولم تشعرْ

بضغطِ باطنِ كفَّيها على صدرِهِ، ولم تَرَ الدُّموعَ التي خبَّأها بحرصٍ عن أخوتِه وهو يقتسم معهم نومةَ المبرز.

كان هواءُ اللَّيلِ باردًا، وهو مُتدثِّرٌ بجلدِ خروفٍ أبيضَ يُقَلِّبُ النَّارَ بطرفِ غصنٍ يابسٍ ليستثيرَ الشَّررَ، وكان أبوه يتقلَّبُ في فراشِه وهو لا يسمعُ إلا استغفارَه وحوقلتَه.

ماتتْ عائشةُ بنت علي؛ هكذا نبَّأهم الطَّارش[3] الذي بعثته العودةْ، وهي لم تكن مريضةً، بل كانتْ صِحَّتُها تتحسَّنُ وصوتُ تنفُّسِها الحادُّ وصفيرُ رئتيها يتلاشى، والعودةْ تهتمُّ بتغذيتها فتسقيها السَّمْنَ والعسلَ وتَخْبِزُ لها الخُبْزَ المُحلَّى وتشتري لها القشَّاط من عند صانعاتِ الحلوى البلوشيَّاتِ اللاتي يَعْقِدْنَ السُّكَّرَ الأحمرَ في حليبِ البقر الطَّازَجِ وهي تلتَهِمُه حتَّى تَكْبُرَ بسرعةٍ وتَنْضَجَ قبلَ أنْ يفقدَ أبوه صبرَه. وكانتْ وجنتاها تزدادان احمراراً كلَّ يومٍ، وجسدُها يزدادُ استدارةً. وذاتَ يومٍ سمع العودةْ تقول لها: بتستوي حرمة قريب... وسمع ضحكات خجلِها.

في أحلامِهِ كَبُرَ أيضاً وكان الماءُ يُغرِقُهُ في ليالٍ كثيرةٍ فيغتسِلُ بماءِ الفلجِ البارِدِ ويتوجَّهُ إلى المسجدِ قبلَ أنْ يستيقظَ أخوتُه، والعودةْ لم تعدْ تُدنيه منها وأصبحتْ تُؤنِّبُه إذا لَعِبَ مع عائشة، وعائشةُ تختبئ في الظِّلال وتنتظِرُه عند المخزن لتُقاسِمَهُ القشَّاط. وهو يأخُذُه ويركُضُ صوبَ الفلجِ، حيث يُبَرِّدُ قدميه ويَبُلُّ رأسَهُ ويَمُصُّ الكِسْرَاتِ على مهل... ويتصدَّقُ بالفُتَاتِ على السَّمكاتِ الصَّغيراتِ النَّائمات في بطن الفلج.

---

3 الطَّارش: الرَّسول.

وجسدُ عائشةَ يَكْبُرُ، والعودُ يُرَاقِبُ حركةَ المرأةِ التي بدأتْ تتشكَّلُ فيها، وهي تنفُرُ من مجلِسِه، والعودهْ تقولُ لها: قريب بتستوي حرمه. وهي تزداد امتلاءً والعودهْ تَقُصُّ عليها حكاياتٍ غريبةً عن النِّساء والرِّجال، ومحمودُ يتنصَّتُ على الحكاياتِ وهو يَحْلُمُ بماءِ الفلجِ يُغْرِقُهُ وعائشةَ تُدَلْدِلُ رجليها في الماءِ وتغرِفُ منه لتَرُشَّهُ به وتضحك، وهو يسحبُها لتغوصَ معه في قاعِ الفلجِ حيث تختبئُ الأسماكُ الصَّغيرةُ اللَّزجة.

حان موعدُ خروجِهم للقنصِ فَوُكِّلَ محمودُ بِقِرَبِ الماء، وعائشةُ كانتْ تُساعِدُه في نَزْفِ[4] الماءِ من بئرِ البيت، وهو يملأُ القِرَبَ التي دَهَنَها بدُهْنِ الماعزِ وجفَّفها في الشَّمسِ وتأكَّدَ من متانتِها، وهي تَشُدُّ الحبلَ حتَّى تَرَكَ أثرَه على كَفِّها وجَرَحَها، وهو رأى الدَّمَ فأخذَ كفَّيها بين كفَّيه، وعندما تأكَّدَ من خلوِّ المكانِ من حولِه لَعَقَ دَمَها بطرفِ لسانِهِ وقبَّلَ باطنَ كفِّها، فارتعشتْ أوصالُها، لحظةً، ثمَّ سحبتْ يدَها من بين يديه، وهربتْ إلى غرفتِها، وأغلقتِ البابَ، وبقيتْ تُراقِبُه من النَّافذةِ وهو يستقي الماءَ وحدَه ويبحثُ عنها بعينيه الغاضبتين.

عينا محمود لم تريا عيني سودوه عندما رأتهما من نافذة المطبخ، وسودوه لم تَكْتُمِ البئرُ سِرَّها، بل دفنتْه مباشرةً في صَدْرِ العودهْ. والعودهْ وحدَها رافقتْهم حتَّى أطرافِ الحارَة، وعندما هَمَّ أبوه بركوب مَطِيَّتِهِ همستْ في أذنِه بشيءٍ ما فتكدَّرَ، وشدَّ راحلتَه صوبَ الدَّربِ، وانطلقوا في قافلةٍ صغيرةٍ كان محمود في آخرِها يلتفِتُ بين الحين والآخر إلى الوراء.

كان ما زال يُحرِّكُ النَّارَ بغصنِ السّمُرِ عندما هبَّ طِيبُها عليهم؛ مزيجُ ماءِ

---

4 نزف الماء: أي رفعه.

الوردِ الجبليّ والورسِ والياسِ. الرّائحةُ أيقظتْ أباه من نومِه فجلس ونظرَ حولَه طويلاً ثمَّ استغفرَ واستعاذَ وعادَ إلى النَّوم. أمَّا هو فقد كان يستمع إلى حركةِ لِحَافِها وهو يكنسُ حصى الوادي بأطرافِه، ورائحتُها تأتيه من صوبِ الجبلِ البعيدِ قويّةً ومركَّزةً. استغفرَ طويلاً لكنَّه لم يستطعِ النَّوم.

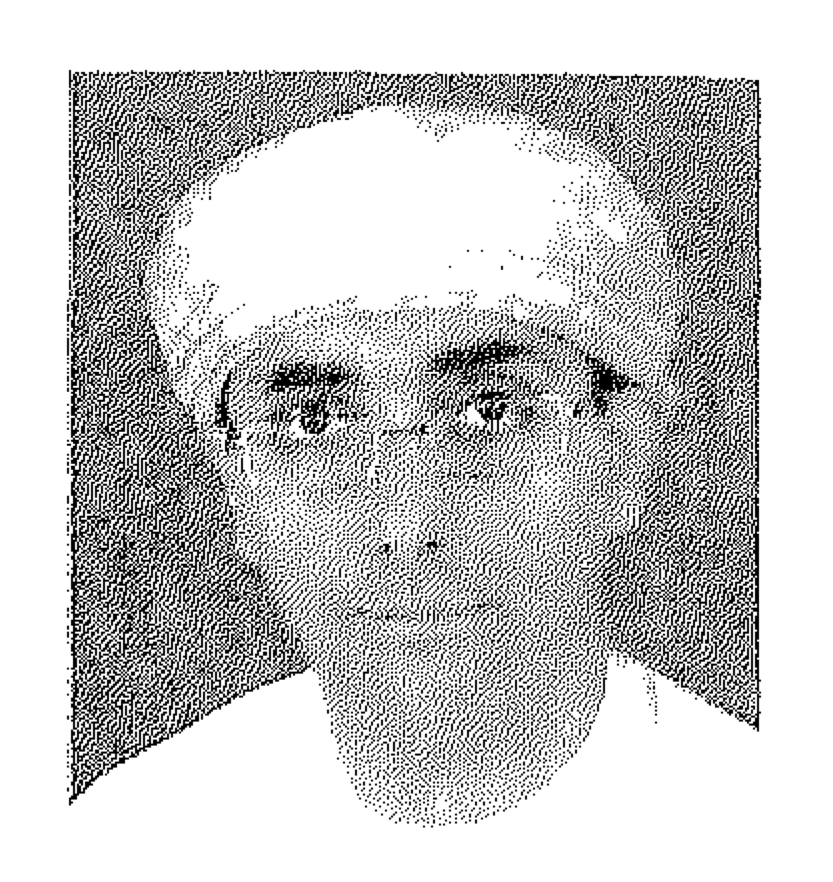
كان وجهُ عائشةَ مشرقاً، وفمُها يفترُّ عن ابتسامةٍ خفيفةٍ، وشعرُها المبلولُ يتناثرُ تحتَها في خُصَلٍ طويلةٍ كموجِ البحرِ، لكنَّ عينيها كانتا حزينتين؛ هذا ما قالته النِّساءُ اللاتي جئن لغسلِ جسدِها من الماءِ، وهذا ما قاله الرِّجالُ الذين انتشلوا جسدَها من البئرِ التي وقعتْ فيها وهي تستقي الماء لتغتسلَ من دمِها الذي فاضَ مؤخَّرًا.

وهكذا وُلِدَتِ الحكايةُ من أصابعِ النِّساءِ اللاتي خِطْنَ الكَفَنَ وحضَّرنَ الحَنوط، ومن دهشةِ الرِّجالِ الذين حملوها من خِفَّةِ جسدِها ومن رائحةِ الورسِ وماءِ الوردِ الجبليّ التي ظلَّتْ تُرافِقُهُمْ صوبَ المقبرةِ التي على أطرافِ الحارةِ الشَّماليَّة.

عاد محمود مع أبيه من وادي العيون وقد تلاشتْ ضحكتُه واخشوشنتْ ملامِحُه، وأبوه الذي أقلقه نحولُ ابنِه وصُفرتُه تشاور مع العودهْ طويلاً بعد رجوعِه وقرَّرا أنَّه قد آنَ أوانُ تزويجِه، ومحمودُ لم يعترضْ وتجهَّزَ للعرسِ بِمَصَرٍّ جديدٍ وببندقيَّةِ أبيه البوعشر التي أهداه إيَّاها, ومحمود لم يَرَ عروسَه التي اختارتْها العودهْ بعنايةٍ من بين بناتِ الشُّيوخ، ولم يَشُمَّ رائحةَ طيبِها التي جاءتْ مزفوفةً بها، بل تربَّع على أرضِ المبرز أمام أعين أبيه وإخوته ووضع

فوّهةَ البندقيّةِ على قلبِه وأطلقَ الرّصاصةَ قبلَ أنْ يستطيعَ أحدٌ أنْ يمنعَه.

في صباحِ الرّابعِ عشرَ من شعبانَ جاءَ الدّراويش الثّلاثةُ إلى الحارةِ كعادتِهم كلَّ سنةٍ، وتحلّقَ النّاسُ حولَهم ليخبروهم عن البيت العود الذي أُقْفِلَ بعدَ أنْ هَلَكَ أهلُه صغيرُهم وكبيرُهم في حوادثَ صغيرةٍ، وأخبروهم عن أصواتِ نواحِ حبالِ الأرجوحةِ وهي تحتكُّ بأغصانِ الغافة المعلّقةِ عليها، وعن رائحةِ الطِّيبِ التي تَغْمُرُ القريةَ كلَّ مساءٍ، وصوتِ عائشةَ الذي تُرَدِّدُه البئر: محمود.. محمود... بسّ هبّطني.



يحيى بن سلام المنذري

كاتب قصة قصيرة وأصدر عددا من المجاميع القصصية أولها "نافذتان لذلك البحر" 1993 وآخرها "الطيور الزجاجية" 2011.

طائرة تبدد لون السماء

في وقت الظهيرة كانت جدران البيت الخشبية هادئة لأن الطقس لا يعكر صفوها بالرياح. وكان حمود ببشرته الحنطية يحلم بركوب أرجوحة في حديقة خضراء طقسها بارد ومليء بالرذاذ. لكن أمه أيقظته فجأة، فأحس بالعرق يتصبب منه. وقالت له: « هيا قم.. اليوم موعد الموكب ». لم يفهم كلامها ولكن النشاط دب في جسمه الطويل ونسي الحلم والحر، وركض كالأرنب ولبس نعليه. أمرته أمه بأن يأتيها « بالترمس[1] » الصغيرة التي وضعت في المطبخ.

1 وعاء لتبريد السوائل

سألها بدهشة: «لماذا؟».

وبعد أن استخدمت «لحافها» في مسح قطرات العرق من على جبينها أجابته وقالت: «سنملأها شربت[1] فيمتو.. وقد اشتريت الثلج».

أحس بعطش وتمنى شرب عصير «الفيمتو» مثلجا، وبعد أن جلب الترمس أضافت الأم وقالت: «هذا سنبيعه للناس الذين سيحضرون لمشاهدة الموكب».

سألها: «ما الموكب؟».

«ستعرف هناك». أجابته بسرعة بينما كانت تسكب الماء في الترمس وتخلطه مع قطع الثلج والسائل الأحمر الغليظ، كانت تعمل بنشاط وسرعة، رغم افتقادها لزوجها الذي رحل منذ سنوات ولم تعرف عنه شيئا. وقد أوهمت حمود بأن أباه سافر إلى الهند في رحلة عمل وسيعود، وحمود لا يزال ينتظر عودة أبيه من البلاد البعيدة التي لا يعرف عنها شيئا سوى الحلويات ذات نكهة النارجيل التي تذوقها حينما رجع خاله راشد ذات يوم من الهند.

حمل حمود كيسا به أربعة كؤوس بلاستيكية، والأم لبست نعليها وحملت الترمس وإناء يحتوي على ماء لغسل الكؤوس، وذهبا ناحية الشارع المسفلت حيث زحمة الناس واقفين وجالسين على الأرضية المتربة بمحاذاة الشارع. سؤالان ناوشا رأسه: ما قصة هؤلاء؟ وما الفائدة التي سيجنونها من وقوفهم في هذا الحر؟ حين وصلا إلى هناك انشغلت الأم بالبحث عن مكان تضع فيه

1 الشراب أو العصير «عصير التوت»

عدة العصير، بينما هو أخذ يبحث عن منفذ لرؤية الموكب، كان الناس مثل أحجار رصت حول الشارع، الرجال يلبسون دشاديش أغلبها يحمل اللون الأبيض والنساء بعباءات سوداء، بينما الأطفال يبدو أنهم غير عابئين بشيء لأن همهم الأكبر هو اللعب بالتراب والحصى والكرة. الناس هناك يتجرعون الانتظار والعطش، وقد عرفوا بأن الترمس لبيع «الشربت» البارد. وضعت الأم الترمس على حجر مسطح وبدأت تبيع العصير البارد ذا اللون الأسود. وكان هناك فتاة صغيرة تبيع الحلويات للأطفال. وهناك امرأة بدينة عملاقة تبيع عصير البرتقال ورجل مسن منحني الظهر يبيع الماء البارد.

كان مصدر رزق أم حمود هو خياطة الملابس النسائية في بيتها، ودائما ما تتذكر زوجها حين دخل عليها منذ سنوات وهي بالغرفة بهيئته العملاقة حاملا على ظهره بندقية عتيقة وحقيبة صغيرة، على الفور أحست بالقلق يسري في فؤادها، لم تتكلم، فقط كانت تحدق في هيئته المزرية تلك، تسجل قامته وتجهم وجهه المتعرق مع تلك البندقية، تخزن الرائحة الكريهة التي تنبعث منها ومن الحقيبة.

نظر إليها بحدة وقال لها:

«اسمعي يا حرمة.. أنا راحل.. حمود أمانة عندك.. كلها كم شهر وأرجع.. لا تخبري أحد».

أغلق الباب وراءه ورحل، تركها مع ولدها الصغير، ولكنها ما زالت تَسْأل لماذا لم تدمع عيناها في ذلك الوقت؟ رحل ولم يرجع حتى الآن، ربما بلعه

البحر، وربما خطفته حورية جميلة وعاش معها على ضفاف الشواطىء الهندية.

كان حمود متلهفا لرؤية شكل الموكب، والشربت بدأ ينقص وينقص وكأنما الشمس هي التي تشربه، وبإلحاح شديد شرب آخر كأس من «الفيمتو» وأحس بأن كل شي أصبح باردا، بعد ذلك جلست أمه مع أخريات افترشن التراب تحت ظل شجرة. بدأ يبحث عن منفذ ولو صغير بين الأحجار البشرية المتراصة ليكتشف الموكب، حاول أن يجد ثقبا يمر منه، وهو يسأل: «هل ينتظرون فلوسا؟». سمع رجلين يتحدثان عن موعد مرور الموكب وأن هناك ضيفا كبيرا، كان جدالهما صاخبا، فالأول يزعم بأن موعد الموكب بعد نصف ساعة والثاني يؤكد بأنه لم يتبق سوى عشر دقائق فقط. ثم حدثت جلبة صاخبة بسبب سقوط بائع الماء، تنبه الجميع للحدث وعلى الفور جاء رجل قوي يشبه الثور حمل بائع الماء وكأنه حمل طفلا نائما وأودعه داخل سيارة «بيك أب بو غمارتين[2]» كانت تقف قريبا من التجمع، ثم تركت غيمة من الغبار بعد أن ولت مسرعة بعيدا عن الشارع المسفلت. اضطرب قلب حمود من أثر سقوط الرجل الضعيف ورَجا ألاّ يكون قد فارق الحيـــاة، وقد تذكر الآن بأنه رغم وجهه المتغضن فقد كان كثير الابتسامات. ثم سمع حمود صوتا جهوريا يقول: «مسكين.. سقط بسبب الشمس والوقوف»، وبقلق توجه حمود بنظره إلى أمه التي جلست تحت ظل الشجرة فاطمأن عليها.

2 مركبة نصف نقل

وفجأة ساد الصمت بين الرجال والنساء وتحولوا إلى أصنام، بينما استمر الأطفال يعزفون المرح والصخب، أيقن حمود على الفور بأن تلك هي إشارة وصول الموكب إلى منطقتهم، وبسرعة نجح في إدخال رأسه بين رجلين، ومن هناك رأى الشارع خاليا من السيارات، وهذه أول مرة يشاهد شارعا وحيدا بدون عجلات سوداء وعلب حديدية تسرع وتزأر، وفي الاتجاه الآخر من الشارع كان هناك أيضا سور آخر صنع من لحم ودم، وبعد قليل انكشفت من بعيد سيارات ودراجات للشرطة تقدمت مسرعة وأطلقت صفيرا حادا، لكن المشهد انقطع فجأة لأن أحد الرجلين أخرج رأس حمود عنوة ليجد نفسه خارج السور، لكنه صمم على محاولة اختراق الحاجز البشري مرة أخرى وإذ به يحشر رأسه هذه المرة بين امرأتين مكتنزتين تفوح منهما رائحة العرق ليشاهد سيارات كثيرة زرقاء لم يستطع أن يتبين أحدا فيها لأنه سرعان ما ركل خارجا.

حاول أن يقف ويمشي مرة أخرى باتجاه الشارع، لكنه تعثر بحجر وسقط، فشاهد السماء زرقاء صافية، وقبل أن يستمتع بالمشهد ظهرت طائرة مروحية اخترقت صفاءها، فتبدد لونها واستحال إلى رماد، نهض حمود من سقطته ليسمع صوت أمه تنادي عليه، شاهدها واقفة بجانب الترمس وأدوات العصير، كانت مثل حمامة تدعوه لتحمله على جناحيها وتطير به إلى البيت، اتجه ناحيتها وحمل معها عدة العصير، لكنه لم يلتفت خلفه ليشاهد ماذا سيحدث بعد مرور الموكب وما إذا كان الناس سيظلون هناك في انتظار

شيء آخر أم سيعودون إلى بيوتهم سعداء، كل الذي يعرفه الآن بأنه موجود مع أمه بأمان، يعودان إلى البيت لكي يشعلا السراج بسائل الـ« حل تراب[3] » لإبعاد كمية ولو قليلة من الظلام. انتابته سعادة مؤقتة حينما تذكر بأن أباه سيعود وسيجلب معه هدية السفر إلى جانب الحلويات الهندية. ومع كل خطوة يخطوها يشعر برغبة قوية في احتضان أمه.

3 سائل الكيروسين



سالم بن عبدالله الحميدي

كاتب قصة ومقالات وله مجموعة قصصية بعنوان "روائح الفقراء" 1997 وإصدارات أخرى.

ورد اليتامى

على عَجَلٍ وهي تشرع في الخروج من بيت جارتها - صباحا - هَمَسَتْ في أذن الجارة الطيبة برصانة وكأنها تتنبأ: أختي الشيمة ضميه!

كانت قد دثرت الذهب ذا الأربعة والعشرين قيراطا ملاصقا لقلبها. الكنز الذي لم تحلم بلمس مثله قط، والذي جلبه معرس البنت الكبرى نام طوال تلك الليلة في حضنها. خبأته كطفل صغير عن زوجها الذي يؤوب آخر الليل مترنحا ويبحث في أطراف البيت عن كل بيسة شاردة. تعلمُ أنه سينبش في كل شبر داخل البيت الشعبي، ويجوس المسافات والأشياء كلها، ومن ثم يتكور كومة واحدة ساقطا بلا حراك بالقرب من جسدها.

ردت عليها الجارة الطيبة بابتسامة كبيرة حانية: أختي! لا تخافي. لن يعرف بمكانه أحد!

*****

انطلقتْ قاطعة الشوارع الداخلية مهرولة باتجاه الشارع العام حيث تتقاطر الشاحنات الضخمة، وتمرق السيارات الصغيرة بانصاف مجانين ومهووسين فكرتْ: اليوم الأخير من الشهر فرصة مناسبة لصرف المعونة الاجتماعية.. سأشتري هدية لشمّوس بمناسبة زواجها، وسأشتري قطع ملابس وأفصلها لميمونة وجميلة ونادية!!. فكرتْ أن مبلغ الاعانة لن يفي بالغرض: ماذا سأشتري لحسين الذي ولد معاقًا، ولسهيم الذي ذهب إلى الصف الأول الاعدادي بدشداشة الصف السادس؟؟ سهيم النجيب الوحيد الذي لم يتأخر في دراسته كبقية اخوته قنوع بطبعه ولكنه حساس لدرجة تبعث الريبة في صدر أمه (ورده)!.

فكرت ورده في أن تأخذ قطعة من ذهب العروس شموس وتبيعها.. ربما أن قطعة واحدة تكفي لشراء ما يناسب فرحة لم تعانق البيت الشعبي الذي وهبته الحكومة لهم بعد الانتقال من الحارة التي ولدت فيها ودفنت فيها الأم والأب وطفلين أو ثلاثة جاءوا إلى هذه الدنيا بدون صراخ الانسان الأول وصخبه رافضين حتى أن يروا هذه الدنيا بعيونهم الصغيرة التي هبطت من رحم التكوين مغمضة!

هي لا تتذكر منذ متى سكنت تلك الحارة القديمة لكن كل ما تعرفه أن

اجدادها سكنوا المنطقة منذ عشرات السنين وبعد عقود قليلة جاء المشروع الضخم للحي التجاري الساحلي. قيل لهم أنهم سينقلون إلى منطقة جيدة، وأشيع بأنهم سيعوضون بمبالغ خيالية من الريالات، وبعيد ذلك اصطفت الآلات الضخمة ككائنات خرافية ترفع خراطيمها وتُعمل معاولها، وكان عليها الرحيل مع أسرتها الكبيرة بدون أن تلتفت إلى الخلف أو تفكر في قبور الأحبة الذين طوتهم ذاكرتها كما طوت الحارة القديمة التي نشأت فيها حيث كان كلُّ شيء بسؤاله الأول وهاجسه الأول وروحه الأولى... اليوم بالذات يعبر شريط ذكرياتها لمرابعها الأولى ولا تدري سببًا لذلك!

على عجل دست المبلغ الزهيد في جيب دشداشتها، وفكرت في العودة سريعا حيث موعد طبخ الغداء، وقفت قبالة الشارع السريع، ولجت الحافلة الصغيرة. فكرت في الجارة الطيبة التي لولاها لما تحملت العيش بعد فمشاكل الأولاد والزوج وقوائم لا تنتهي من المطالب والمطالبات لكن الجارة الطيبة صدر حنون ومتسع ورقيق يواسي وردة في نوازل هذا الدهر بكلمات رقيقة وابتسامات طيبة فكرت أن تقدم لها هدية صغيرة عندما ستبيع قطعة من ذهب العروس...

احتضنت رأسها بغتة. اختلطت العربة بركابها ولم تعد تتذكر إلا « الصوغ » الفا ريال لم تحلم بلمسها من قبل. كانت شمس الظهيرة تصهر رأسها. الفت نفسها على أسفلت الشارع السريع ممددة. تحسست جروحها ومسدت بيدها المرتعشة على المبلغ الزهيد في مخبأه. تبرع سائق أجرة لانقاذ بعض

الأحياء الجرحى وانطلقت عجلات سيارته تصهل باتجاه المستشفى الجامعي القريب. زاد من سرعته آملا في الأجر وانقاذ الأرواح التي تتعذب لكنه لم يستطع تفادي الاصطدام بشاحنة خضار قطعت الشارع.

*****

عبرت سيارة الاسعاف بجثة وردة الشوارع الداخلية للحارة. توقفت أمام بيت بسيط تجمع حوله الخلق. أُنزل الجسد الذي استكان عن تطوافه أخيرا وعلت الأصوات بالعويل.

تقدم رجل خمسيني يترنح باتجاهه فتش صرة الملابس وأخرج مبلغ أربعين ريالا وصرخ بحرقه: الذهب! لقد سرقوا الذهب! أين الذهب؟، وكان ثمة امرأة في الحلقة المتجمعة تبكي بحرقة وتنظر المشهد من طرف خفي...



محمود الرحبي

كاتب قصة ومقالات وروائي، وأصدر خمس مجموعات قصصية إضافة إلى أكثر من عمل روائي

الفرو الأبيض

في دار الدباغة بفاس، بعد أن توارت الظهيرة، جلس البهلوي ينكش بإحدى يديه أفكار الخسارة التي تراوده، وبيده الأخرى يدحرج ببطء خرزات مسبحته. وبينما هو هكذا، مر بجانبه شاب تتصنع عيناه أسئلة حائرة لا تقل شراسة عن التي يحسها البهلوي في خلوته.*

تلفت الشاب وهو يجاهد أنْ يضمن بأنّ قسمات حيرته تصل كاملة إلى عيني البهلوي الذي كان يرمقه باستغراب هادئ، وقد أوقف سير خرزات المسبحة.

رفع الشاب رقبته وحكَّ بضيق مصطنع الصفحة الملساء لخده، وحين اصطدمت عيناه بعيني البهلوي اقترب خفيفاً

ـ السلام عليك أيها البهلوي

وعليكم السلام ورحمة الله.

ـ سمعت بأنك أشهر باعة الجلود في فاس

هذا ما يقوله الناس

ـ لن أطيل عليك، فأنا في عجلة، ما أريده فقط هو فرو ثعلب أبيض.

فرو ثعلب أبيض؟ لم أسمع به، ويؤسفني أنْ أرد طلبك، لدي أنواع أخرى أدخل لترى.

ـ لا يا سيدي الحاج، طلبي هو فرو ثعلب أبيض، وسأشتريه منك بخمسة ملايين سنتيم، لقد طلبه مني رجل ثري، فلكي تستطيع زوجته أنْ تنجب له غلاماً لابد لها من أنْ تغطي وصفة الفقهاء بفرو ثعلب أبيض. أتركك الآن وسأعود إليك بعد جمعتين، إبحث عنه، وهذا نصف مليون سنتيم ضعه عندك كتأكيد على حسن نيتي، وحين أعود، وربما لن تتمكن من إيجاد الفرو، فعليك أنْ تعيد المبلغ إليّ، أنا أسمع عن كرم أخلاقك وأعرف أنك لن تلمس مالاً لا يخصك.

- اترك السر بيننا يا بني، وسيحل الله ما يشاء.

اختفى الشاب، بعد أنْ ترك ما يشبه اللكمة المباغتة في وجه البهلوي الذي تحولت أيامه بعد ذلك إلى سؤال مفتوح يطل على فراغ. ومثل لصقة

القلق الأبدية ارتسمت في عينيه صورة البحث فوق الأكف والأكتاف للبشر الذين يمرون أمامه.

مرت أيام قبل أن يقفز البهلوي من مكمنه على صورة كتفٍ أبيض، ترك حانوته وخطى شارد الذهن وراء الكتف، وحين اقترب منه تملاه بمهل، ثم ربت عليه ليتحسسه، فانتبه صاحبه فجأة:

لاتخف، لاتخف، أود أنْ اسألك فقط عن هذا الذي تحمله فوق كتفيك؟

- شيء يخصني وحدي، دعني وشأني

أجبني فقط وسأتركك

- كما ترى بعينيك، فرو ثعلب

فرو ثعلب أبيض؟

- نعم

أريده منك، سأعطيك ما تطلب فيه

- ليس للبيع، إني أتبرك به، وهو كما ترى نظيف لأنَّ عنايتي به لا تتوقف.

بعه لي، سأعطيك ما تطلب

- لا يمكنني أنْ أبيعه، إنَّ به سري وأجزاء طويلة من حياتي

أيكفيك نصف مليون سنتيم؟

- ولا مئة مليون، اتركني يا سيدي الحاج وشأني

مليون

- أرجوك، قلت لك إنه ليس للبيع

إني أحتاجه حقيقة، لا تجعلني أقف طويلاً يا بني

ـ إنْ ذكرت لي ثلاثة ملايين فربما سأوافق

اتبعني الى حانوتي

ومنذ ذلك اليوم، والأشهر تمر أمام عيني البهلوي كعداد المسبحة البطيء بين أصابعه، وهو يرمق الوجوه تخطو أمامه ساهماً، دون أنْ يراها.

------

* بهلوي من «بهلاء»: مكان عماني هبط فيه أول مرة ـ كما تحكي الأسطورة ـ النبي سليمان في قيادة جيش من الجن، بحثاً عن أسقف الماء الخفية، وحين أمرهم بحفر الآلاف منها، انبثقت متدفقة، الأفلاج في عمان بأبنيتها المعقدة.



محمد بن سيف الرحبي

كاتب قصة وروائي وله أعمال مسرحية وسردية أخرى

الذي عاد غريبا يتذكر الذئب

عاد من غواية السفر، آيبا إلى سيرته الأولى، كحائط يستند إليه، وقد تزلزلت الأرض من أسفل قدميه.

حط رحاله على حين غرة، أوصد كل الأبواب مبقيا بوصَلته متجهة نحو البيت القديم، الذي بقي قديما وحده، بابه لم تغيره صروف السنين، الضلفتان الخشبيتان بلونهما المائل للسواد، والمرجام[1] الذي لا يصد سوى الريح والهوام المنتشرة في تضاريس المكان.

رأى الذئب يدفع الباب ويدخل، رآه يخطف ما يريد ويذهب، لم يجرؤ حتى على الصراخ، خاف الذئب حينما كان صغيرا، كأنه رأى شيئا منه وهو يدلف الباب الذي أصبح قديما، طار الذئب بفريسته، لم يعد يتذكر إلى أين، مع أنه لم ينس الذئب، وعذّبه كثيرا صراخ الفريسة.

على المدخل الشرقي من البيت رأى أمه تفتح القبضة القماشية عن كومة الثمار الجبلية المحصودة من أزهار أشجار(السمر) وأوراقها، أبصرها تتحسس أصابعها مزيلة ما علق فيها من طعنات (السمر) متوجسة من شوائب دخلت بين الظفر واللحم، قالت له أيام الغربة ان الظفر لا يخرج من اللحم، تذكر الألم، أظافره المتمردة على لحم الأصابع، تصطدم حين يركض بحصاة فتخضر ثم تبدأ بالانقلاع عن مكانها، جرّب قلع الظفر عن لحمه، فعلها سنوات طوال، شعر بألم القلع فارتد يبحث عن لحمه.

ناداها بصوت لم تسمعه، لم يتأكد أنه زعق به، في اللحظات الفاصلة بين الكلام والسمع رمت (المجز)[2] فوق (المنقل)[3] الخاوي من عشاء البقرة العنيدة على الحمل، التقت الأعين الأربع، تدفآ بالوهج المتبادل، خطف منه ما يرومه في المواجهة الحميمية تلك، التقت الأيدي الأربع، احتضنته وهو واقف بذهول ما، طوقته باليدين المتعبتان بجراحهما، وبالقلب المثخن بجراحه، بكت كأنها تبكيه ميتا، استرجعت كل البكاء الذي أطلقته عبر السنوات الفائتة، وهوت على حزمتها..

- حرصناك واجد[4]، من يوم على يوم نحرصك تجيء، تأخرت باه[5].

- بس كان موعد الطيارة يتأخر.

- بس أبوك حرصك واجد، وعمك باغي يشتري المال، لج عليه علين مات.

- أبوك مات يا غائب الأرض..

- والدك انتظرك، تأخرت عليه، ألقى في حلقه حجرة أخيرة، غصّ بها، هزمه المرض والزمن.. وغيابك..

انتبه فجأة أنه كبر على حين غرة، كان الصوت يأتيه من مكان ما، ابن العم لم يقل أن أبي مات، وأن أخوتي تفتتوا بين حجر وحجر، وأن الذئب الذي افترس غنيمته قد يعود مرة أخرى ليفترس أخرى.

لم يلمحها حينما تركت دائرته، هوت عليه أحزانه دفعة ضخمة من النيازك والأحجار الكونية، حزمة الحطب في مكانها المعتاد منذ أن فتح عينيه للضوء أول مرة، كأنه غادر البقعة للتو مختبئا في أصقاع الدنيا عن مخلفات أمسه، باحثا عن حرية لم يجدها بين النخلة والنخلة، بين سفح الجبل وعلوّه القاسي.

قالت له: ستعود غريبا، ولن تعرفك الدروب المغبرة، ستغدو غابرة لكنك ستستبقيها كي لا تظل عابرة.

حين ربط حقيبته الصغيرة وأمنيته الكبيرة في نسيان البيت والذئب

والباب الذي لم يكن موصدا بما فيه الكفاية، حين دفع حقيبته دفعا ميمما وجهه شطر الارتحال بكت أمه، لم يقرأ ما تقوله الدموع جيدا، شاهدها تجمع ما تناثر من أوراق شجرة الليمون الوحيدة في صحن الدار، كأنه سمع أنينا محبوسا يريد الانفلات من قفصه، كان قفص صدر أمه أقوى من أن يترك الأنين يتحول صخبا، رآها آتية مخلفة وراءها أشجار نخيل وسفرجل، هجست له بما تحس: ستعود غريبا، وسنراك غريبا.

وضع حقيبته الكبيرة المثقلة بسنوات الاغتراب فوق دكة في البيت لم يعد يتذكر أنها كانت أم لحقت بالمكان بعدئذ، بللته أمطار أعين وارتعاشات قلوب، وشعر بخشونة يد أمه تتحسس يده.

على عصا التذكر يتكيء، يحاول تفنيد السنوات السمان من رفيقاتها العجاف، تأمل غير مرة الأوراق المختومة بحبر الغربة، أخرجها من ملفها الورقي الداكن، أعادها إلى الملف مرة بعد أخرى، اهترأ غلاف وشحب لون حبر، وعلى مقربة من تلك الساقية كانت أمه تضع حملها من حطب شتاء القرية، وعدها بـ(سلندر) الغاز لتلقي عن كاهلها عبئا واحد على الأقل، وبالفرن الكهربائي حينما تصل أسلاك التيار إلى قريته المعرّشة على قمة جبل، حطّ على أذنيه حديث كأنه معاد للمرة التي لا يتذكر:

- الحكومة رايحه تبني حالنا بيوت.

- إذا فوق الجبل نبغاها.

- بيوت السميت ما تطلع فوق الجبل.

- ونخلي مكان آباءنا وأجدادنا حال من؟ ماتوا واجدين من أهلنا عشان يبقيوا في المكان، فوق.

- بس ما يستوى في هذا الوقت نسكن هنا.

- إذا بغيت اهبط، أما...

وهبط صوب المطار، صوب نافذة الطائرة لوى عنقه يمدد بصره ناحية الكتل الصخرية لعله يراها، قريته، فوق تلك القمم الصلدة، المتساوية من وراء النافذة الصغيرة رغم تباين شموخها، أسرج خيول التأمل، المضيفة بوجهها الجاد سألته عن نوع الأكل الذي يشتهي، وعاد إلى النافذة كأنه أجاب بالكلمة التي ألقاها.

البوصلة التي قادته إلى الجبال بدت مرتبكة وحائرة، بوصلته تتجاذبها ذبذبات حنين ووجد ورؤى ولا لانهائي من المشاعر المتصارعة، صعدت به السيارة الرباعية الدفع إلى المكان، ابن عمه الذي أحضره عبر المسافة الواصلة بين المطار والقرية بعيد حدّ الحديث عن تشعّب العائلة: أخويي سعيد تزوج من سنين، عنده أربعة صبيان وثلاث بنات، أخويي سالم تزوج حرمه غيرها، جاب منها سته، ماشاء الله كلهم ذكور، أخويي....

لم يهده ابن عمه إلى الصوت الذي أنبأه بالغربة قبل نحو عقد من الزمان، السنة تتبع السنة وتبدو أنها الأخيرة، تقترب الأوبة كالغد، وتنأى كالحلم

العابر، حدثته نفسه أن يسأله عن والده، أهبط من الجبل أم ظل في علوه، من اعتاد سكنى الشوامخ لن يرضى بالسفوح، لا يدري من أي بقعة جاءته هذه العبارة، لم يقلها لابن عمه وهو يمضي في سرد تمدد العائلة عدديا..

- كلهم خلصوا دراستهم؟.

- حد كذا وحد كذا، حد منهم اشتغل ف البلاد، حمدون ناطور ف المدرسه، وسعيد حصل سايق يشل الصغيرين مال المدرسة، يعطيوه معاش زين، فوق الميت ريال.....

في المسافة سكت، الغيمة التي بالغت في حلمها متجهة صوب قمة الجبل تلاشت مع عصف الريح في الفضاء، تغيّرت شوارع، نبتت أرصفة، تساقط حجر، نهض خرسان، والسفوح وراءه تسفح بعضها بعضا.

سألته أمه عن غربته، ودّ لو يسألها إن كان الذئب دفع الباب مرة أخرى ودلف للداخل، تذكر والده الذي بكى ملاحقا الذئب، لكن الذئب فرّ بغنيمته، بقي في قلب الأب حجر يزداد ثقلا كل حين، مع نظرة يثقل، الرجل الذي لم يدفع الذئب دون النيل من الفريسة، ووالده ابن جبل، لا يرضى سوى بجثة المفترس.

صوت ما.. كان يأتيه، من شغور الجدران، العاصفة التي جاءت على غير موعدها في هذا الموسم، النخيل فقدت القدرة على الاخضرار كما كانت تفعل قبل سنوات.

الاسمنت صدق ظنه ولم يصعد للأعالي، تهاوت أرواح كثيرة نحوها تلك

السماء البالغة الزرقة، حتى في الليل يراها زرقاء لا غيم تترقبه يرقد في عين جافة وقد سفح ماؤها كثيرا.

في الفجر استيقظ معه قراره..

لم يكن من وداع، الأم التي خرجت مع مواشيها باكرا لن تعرف ما الذي سيتغيّر في جريان السنين من حول صخورها.

وضع حقيبته الكبيرة على السيارة الرباعية الدفع، لم يكن ممتلكا إلا القليل من أمنياته القديمة..

هبط من الجبل، آيبا إلى حيث لا يدري.

كانت الراعية تصرخ مشيرة نحو البعيد، جثت على ركبتين لم تحتملاها، تجمّع حولها من يبحثون عن مكان تشير إليه أصبع تهتز، على السفح كان هناك ما يتّجه نحو القعر، هابطا نحو البقعة السهلية، تماما حيث أقعى الأسمنت الذي رفض بلوغ الأعالي.

هوامش:

1 - المرجام: مغلاق الباب.

2 - المجز: أداة حديدية مسننة يستخدمها الفلاحون للقطع.

3 - المنقل: ماعون مصنوع من جذع النخيل يوضع فيه طعام الحيوانات.

4 - حرصناك واجد: انتظرناك كثيرا.

5 - باه: تستخدمها الأمهات والجدات للتدليل والإكبار في نفس الوقت، وهي بمعنى أبي.



أحمد محمد الرحبي

كاتب قصة وروائي.. له "أقفال" عام 2006 و"الوافد "عام 2012

مسمار

كان عز الصيف والشمس. كان أيضا غبار وزوجتي المريضة وهي تلهث في المقعد المجاور. أوقفت السيارة وعدوت إلى الشرطي الذي قطع بسيارته السوداء، المدخل الوحيد إلى الشارع العام.

من فضلك يا أخ (قلت وأنا أنقر على زجاج السيارة، فأنزله حتى تراءت قبعته المخططة وطيف صغير من عينيه).

نعم.

أرجو أن تسمح لي بمواصلة طريقي. في السيارة شخص مريض.

ممنوع. (قالها وهو يرفع الزجاج حاجبا عني هواء المكيف البارد)

يا أخ. لو سمحت. (طرقت على الزجاج فنزل إلى حدود نصف القبعة) زوجتي تلهث ولا يعلم إلا الله ما بها. لقد قطعت عشرين كيلومترا في التراب والحصى لأختصر الطريق.

هذا ليس من اختصاص الشرطة، الدخول من هنا ممنوع.

تلفظ بآخر كلمة، ضاغطا على حروفها وأطبق على الزجاج. كان حانقا من تعنتي وكنت أشتعل حرا وغيظا.

عاودت الطرق فبرز سطح قبعته لا غير.

أعرف أن الأمر ليس من شأن الشرطة، وأعرف أن الدخول ممنوع من هنا، وأن مساعدة المرضى من اختصاص وزارة الصحة، أما الشرطة فتاتي بعد وفاة المريض. أعرف كل هذا. ولكن ما الأفضل برأيك: أن أعود عشرين كيلومترا في الحصى أم تتكرم وتفسح لي الطريق لأوصل تلك المسكينة قبل أن تنفق؟

ممنووووع. العبور من هنا ممنوع. (خرجت كلماته مع تيار الهواء البارد، وقبل أن يعود لإغلاق الزجاج، سبقته ووضعت إبهامي على الحافة، فتبقت بيني وبينه فجوة صغيرة)

حسنا، حرر مخالفتك ودعني أذهب. أنا راض بذلك.

ممنوع. حرك سيارتك الآن والتزم بالقانون وإلا...

لا داع لذلك. هدئ أعصابك. سأذهب. ولكن أرجو أن تنزل الزجاج قليلا. أريد أن أقرأ ماذا كتب على صدرك. نعم.. يكفي هذا. علي بن سالم ال... اسمع يا أخ علي. اسمع ما سأقوله جيدا لأن الأمر يهمك للغاية. تبدو غريبا عن المكان، لذلك لم تعرف من أنا. لا يهم. بإمكانك - لو اتسع لك الوقت - أن تسأل من أكون وستجد من يخبر عن «أبو رآس». أبو رآس، هذا الذي يقف أمامك تحت الشمس ويتصبب عرقا يعرف الكثير. يعرف أكثر مما تتصور. اسمع إذا ماذا يعرف أبو رآس. إنك تجلس الآن في سيارتك وتنعم بالمكيف البارد. هذا شيء طبيعي وسأفعل مثلك لو وضعتني في مكانك. ولكن هل تعلم ماذا سيحدث لك بعد ساعة؟ اسمع إذن. سوف يتصلون بك من مقر القيادة ويأمرونك بالاتجاه إلى مكان آخر. وقع حادث هناك وعليك أنت بالذات معاينة الحادث. اختارتك الأقدار دون سواك. ستنطلق بسيارتك إلى المكان وستقودها بحماستك المعهودة. الواجب يناديك. ولكن ليس الواجب وحده من سيناديك في تلك اللحظة. إنه أمر أكبر من ذلك وأكبر من أي شيء آخر. سيقطع طريقك سيل غمر الشارع بمياهه، وسيصيح بك الملأ أن لا تجتاز الواد. ولكنك ستصم آذانك وستدخل الماء الجارف كالسائر في نومه. نعم، بإمكاني رؤية ذلك كما لو أنه يحدث الآن أمام عيني. ستدخل إذن وستسير في الماء حتى منتصف الوادي. عندها ستفيق من غفوتك ولكن بعد فوات الأوان. سيأتي تيار عارم ويبدأ بجرف سيارتك باتجاه الأسفل، شيئا فشيء حتى تهوي في جوف الوادي. ما سيحدث بعدها تعرفه: ستدور بك السيارة مئآت المرات وستصطدم بآلاف الأحجار إلى أن تعلق

بجذع شجرة. بعد أن يهمد السيل، سيأتي رفاقك للبحث عنك. سيجدونك وسيشرعون بانتشالك.. قطعة قطعة. وبطبيعة الحال سيمسك أحدهم بكيس الرفات الأسود. سيحزن ذلك الممسك بالكيس، ولن تطاوعه نفسه ليضع زميله على الأرض، فيعلق الكيس على غصن الشجرة ويعود لمشاركة الآخرين في تجميع حطام السيارة. حين ينتهون من عملهم، سيغادرون المكان ناسين الكيس الأسود معلقا على غصن الشجرة. لا تتعجب وتنبهر هكذا.. يحدث في الدنيا ما هو أغرب من هذا. ولكنني يجب أن أكمل قصتك ما دمت قد بدأت بها. كان من الممكن أن ينتهي بك الأمر وأنت معلق على الشجرة لولا اقتراب شخص عابر من الشجرة. رجل فقير رث الملابس جاء يبحث عن قوت عياله. يحمل بيده جُوالٌ سيضع فيه ما بقي من حديد السيارة وسيحشوه بالكيس الأسود ويحمل كل شيء إلى مصنع الصلب. في المصنع لن يألو العامل جهدا للتأكد من البضاعة وسيقذف بالجوال في الفرن. لا يوجد أسهل من إعادة تصنيع الحديد. تضع الخردة في جانب لتخرج لك معجونة من الجانب الآخر فتشكلها كما يحلو لك. سيسكبون العجين على قوالب بشكل مسامير عريضة مسطحة. تعرف تلك المسامير التي تلمع وسط الشارع وعلى جوانبه لتنبيه المركبات. أحد تلك المسامير سيكون أنت. ستحرقك الشمس كما تحرقني الآن وستدوسك السيارات، كل يوم وكل ساعة وإلى أبد الآبدين.

تركته غارقا في ذهوله وعدت إلى سيارتي ثم استدرت نصف استدارة وانطلقت عائدا ومن خلفي بدأت تكبر سحابة غبار



خليفة بن سلطان العبري

كاتب قصة له مجموعة من الأعمال القصصية أولها "مواسم الغرب؛ عام 1994.

يوم على تـخوم الربع الخالي

كادت سيارة الدفع الرباعي ذات الكبينة الواحدة أن تنغمس بنا في كثيب من الرمال حينما أخرجها حمدان من الشارع المرصوف بصورة مفاجئة بعد أن التفت متأخرا إلى الدرب المترب الذي يوصلنا إلى المكان المقصود.

كان دربنا يكشف فضاء رحبا لا يقطع إبصار اتساعه بين الأرض والسماء سوى أشجار السمر المتناثرة بكثافة متباينة وكنت وسليمان نتراص على كرسي واحد مع السائق داخل سيارة (أبو شنب) كما يطيب للناس هنا تسميتها.

ربع ساعة ونوصل عند الجماعة قال حمدان طالبا مني تحديدا تحمل هزات الطريق الممتلئ بالمطبات الرملية إدراكا منه بعدم تعودي على مثل هذه الطرق كسليمان رفيقه اللصيق.

- (عزبتهم) كانت أقرب لكنهم نقلوها أبعد بحوالي عشرة كيلومترات يقولون إن المرعى هناك أفضل قال سليمان.

الطريق لا يقطع وحدتنا فيه غير سيارات تحمل مسمى إحدى شركات البترول المعروفة وسيارات أخرى تبدو كأنها لمقاولين فرعيين للشركة ذاتها.

وصلناهم قال حمدان حينما تراءت أمام عينيه وعيوننا فيما بعد تجمع لسيارات أغلبها من نفس نوع سيارته (أبو شنب) وقطعان من جمال متفرقة بعضها يجول في المنطقة وأخرى موزعة على أكثر من أربع حظائر.

كان استقبالهم تحت أشجار الغاف يشرح النفس حقا تشعر بأن اشتعال الصباحات الطبيعية تكون هنا. صبح لا يكسر سكونه غير حداء الإبل ونسيم عليل بين فصلي الصيف والشتاء تكون فيه الرمال قد ودعت شهورا من القيظ اللافح الذي يكاد يحولها إلى موقد طبيعي لشواء كل شيء.

خيل إلي لحظتها بأنني أعيش جزءا من الواقعية السحرية.

لم يكف مضيفنا سعيد الردعي عن تكرار عبارات الترحيب بنا مع ابتسامة لم تغب حتى وهو يأمر ولده (علي) بحلب الناقة فكنت أول من أشير إلى علي بتسليمه الطاسة المليئة مع رغوة تكاد تفور خارجها، بعد أن أبو أن يشربو قبلي في إيثار يبدو إنه ليس بغريبا عنهم، لكن في قرارة نفسي كنت أقول لو

ثمة من شرب قبلي لحرمني تقززي من تذوق حليب الناقة . فلكي تشرب بهذه الطريقة يتحتم عليك أن تنفخ في الطاسة حتى تبدد الرغوة ثم تشرب.

- الرجال من رعاة الدار لكنه من صغره عايش في مسقط (قال حمدان وهو يعرف سعيد الردعي والآخرين بي).

أثار انتباهي كلمة (مدني) على لسان سعيد الردعي بعد ما أخذ صاحبنا سليمان يساومه على إحدى النوق لكزت حمدان (مدني يعني إيش؟) رد علي وكأنه يستنكر عدم معرفتي: يعني الناقة حامل.

سرعان ما عدت لأربت على ساعده بأناملي بعد أن سمعت منهم كلمة أخرى (الزمول) يعني إيش؟! يعني ذكور الجمال ياالحضري رد حمدان.

وقلت مبتسما تصدق إن كلمة الحضري ما سمعتها من سنين طويلة من أيام ما كان البدو يتوافدون بكثرة على قريتنا أيام القيظ طلبا للتمور التي كانت تجود بها مزارع القرية وبسبب دعاباتنا مع أبنائهم يتم تصغير الحضري إلى حضيري والبدوي إلى بديوي.

التفت الجميع إلى سيارة قادمة تتضح بأنها واحدة من تلك السيارات التابعة لشركة البترول التي صادفنا مثلها في طريقنا.

سأعرف لاحقا بان الرجلين اللذين ترجلا من تلك السيارة ليشاركانا جانبا من قيلولتنا يقتربان من مرحلة التقاعد بعد أن أمضيا 45 عاما من العمل في صحراء تكاد تكون مقفرة.وحينما خرجا من قريتهما التابعة لولاية عبري في مطلع ستينات القرن العشرين ولم يكونا قد تجاوزا الخامسة عشر بعد. وكانا

كمن عثر على كنز. فهما لن يضطرا إلى الغياب عن قريتهم أكثر من ثلاثة أسابيع وليس سنوات كحال الكثير من أبناء القرية وسيحصلان على رواتب سخية إضافة إلى مؤونة أبرز ما فيها هو البسكويت يجمعا بأنه كان بالنسبة إليهم في تلك السن ألذ بسكويت أكلاه في حياتهما الماضية وحتى اليوم.

كان ابن سعيد الردعي (مطر) وإخوانه سالم وحمود يهبون حين يتلقون أمرا من أبيهم ناهضين من جلوسهم قفزا كظبي من الظباء التي خيل إلي وجودها متدارية بين الشجيرات المتناثرة أو خلف التلال الرملية قبل أن تبيدها الأسلحة الآلية وقسوة الطبيعة التي زادت قسوتها خلال العقود الأخيرة. وحينما ينادي عليهم أو على الآخرين من رفاقه تكتشف إن كلمة نعم لا تخرج هنا باردة بل كأنها تأكيد استجابة من أفواه جنود في صفوف عسكرية.

حين رأيت أحواض المياه المخصصة لشرب النوق سألت سعيد الردعي من أين تأتون بالماء؟ قال من قريب. حفرت لنا شركة البترول بئرا والحكومة حفرت لنا بئرا كذلك. مال سليمان جهة أذني اليمين (قريب بدو).

- ماذا تعني قلت هامسا لسليمان؟

- حينما يقول لك البدوي قريب توقع إن المكان أو البئر على بعد سبعين أو ثمانين كيلومترا. وصاحب الجمال لا يشعر بطول المسافات.

- ولكي يبرهن سليمان على كلامه سأل سعيد الردعي : وين حصلت السنة الماضية الناقة الحميراء؟ رد عليه في (مقشن) عند صاحبها.

هالتني المفاجأة وقلت بصوت مرتفع: على بعد سبعمائة كيلومترا!

- رد الردعي: الأماكن ما بعيدة هذا الزمان. أول ما كان عندنا سيارات ونقتفي آثارهن حتى الجازر وحتى الحساء في السعودية نمشي في هذه الصحراء لا مراكز حدود ولا يحزنون.

نهضـت من جلسـتي بينهـم منفردا بنفسي على تلة قريبة، حيث بدا مشهدهم من هناك تحت أشجار الغاف الأخضر كالواحة التي يحيط بها أفق غير محدود . . .

مجموعة منهم بدت وكأنها تشعل حراكا في الصورة الماثلة أمام بصري وهم يتبادلون العمل على قدر ضخم يتعالى منه بخار يحمل رائحة لحم الجدي الشهي الذي ذبح بعد وصولنا بقليل ربما تصلني رائحته حيث المكان الذي انزويت فيه وربما أوجدها عقلي الباطن بعد تخيل الرائحة مما دفع بأحاسيس الجوع تدحرج قدمي على رمل التل هامسا لحمدان : استعجلهم علشان نروح.

كان سعيد الردعي يدس ربطة من فئة الخمسين ريالا بعد أن اتفق مع سليمان على بيعه للناقة بعد ما تأكد يقينا من إنها من بنات (مصيحان) العريقات في الأصل والنسب.

وكانت السحب التي حملت أمل الرش تنزاح بانزياح الشمس من كبد السماء منحدرة باتجاه الغرب حينما ودعنا بامتنان سعيد الردعي ورفاقه عائدين للتراص داخل كبينة سيارة (أبو شنب) بينما تم إتقان تقييد الناقة بالحبال ورفعها في مشحن سيارتنا الخلفي بشكل متقن أيضا.

وقبل منتصف الطريق كانت تساؤلات سليمان حول مبلغ الألف والخمسمائة ريال التي أنقدها سعيد الردعي ثمنا للناقة تستحقه أم مبالغا فيها تتوقف بعد إقناع طويل مارسه حمدان وتدخلت فيه أيضا رغم جهلي بعالم الجمال أو عالمهم بصورة أدق. لففت رأسي متطلعا إلى الناقة التي تجلس القرفصاء خلف ظهورنا فبدا لي أن روحها ممدودة إلى حيث كانت وكأنها تطلق بكاء مكتوما على وداع قسري أو فراق نهائي.



سليمان المعمري

إعلامي وكاتب قصة وروائي، من أعماله القصصية: "ربما لأنه رجل مهزوم" عام 2000 ورواية "الذي لا يحب عبدالناصر" عام 2013

لماذا ؟! .. لأن....*

سوف لن أسأل المضيفة عن هذا الرجل المعلق بجناح الطائرة لماذا هو خارجها لا داخلها .. سوف لن أسأل لأنها حتما ستجيب أنها لا ترى أحدا.. ثم إنني لا أحب المضيفات.. لا بد أن أعتمد على نفسي في الوصول إلى الجواب.. ولكن.. لكي أصل إلى الجواب لابد أن أضع السؤال أولا : لماذا اختار هذا الرجل أن يتعلق بجناح الطائرة ؟.. لماذا اختار؟..

ربما لم يختر هذا الوضع مثلما أنني لم أختر أن يكون مقعدي بجانب النافذة المطلة على الجناح لأراه .. المضيفة أيضا لم تختر تنورتها باهتة الألوان، ولا ابتسامتها المصطنعة.. وظيفتها تحتم عليها ذلك.. لا أحب الوظيفة.. لا أحب الابتسامات المصطنعة.. لا أحب التنانير.. أحب هذا الرجل الذي اختار طريقة غير تقليدية للسفر (هذا إذا كان اختار فعلا).. لا بد أنه يقول لنفسه الآن : هؤلاء المسافرون الحمقى.. هؤلاء التنابلة .. إنهم يتمطّون على مقاعدهم كالخراف . ويشاهدون شاشة مكتوبا عليها أنهم يبعدون عن الأرض آلاف الأقدام ، دون أن يفكر واحد منهم ماذا يعني ذلك؟.. أنا أختلف عنهم.. ها أنا أحلق في الفضاء الرحب.. ها أنا أقبّل نجمة على وجنتيها .. ها هو نيزك أكلته الغيرة يصفعني على وجهي.. بعد قليل سأشكوه للقمر ..

هكذا إذاً .. هو رجل غير عادي , يقبّل النجوم ويكلم القمر .. هذا يغريني أكثر بمعرفة حكايته .. لا بد أن أعرف حكاية هذا الرجل .. هل أسأل المضيفة ؟ .. ولكنها ستقول إنها لا ترى أحدا .. المضيفات غير مسموح لهن أن يرين إلى أبعد من أقدامهن .. كيف إذاً سأعرف سر هذا الرجل ؟ .. سأسأله هو مباشرة .. سأقول بصوت عال : يا أيها الرجل المعلق , قل لي ما هي حكايتك ؟.. ولكنه لن يسمعني .. المضيفة ستسمعني .. ستهرول إليَّ مفزوعة, وتقول بسبابتها الغاضبة : من فضلك , لا تزعج الركاب .. لا أحب الركاب .. كلهم مشغولون بقراءة الصحف وسماع الأغاني والتفكير فيمن سيستقبلهم في المطار دون أن يتنبهوا أن ثمة رجلا معلقا بين السماء والأرض .. رجلا يشبهني.. نعم .. أرى في عينيه نفس الغيمة المسافرة التي أشاهدها حين أنظر إلى المرآة .. أقرأ

في وجهه نفس الانكسار الحزين الذي يغلف وجهي .. ألمح في شفتيه نفس الترنيمة المبحوحة الخارجة من عصفور شنقت حنجرته .. هل قلت يشبهني؟.. إذاً لا بد أنه مثلي يملك موهبة قراءة تعابير الشفاه .. سأسأله إذاً بحركة شفتي دون صوت يزعج حضرة المضيفة : يا أيها الرجل المعلق ما هي حكايتك ؟.. يا الله .. انه يبتسم .. إذن فقد فهم سؤالي ..لكنه لا يجيب .. ربما لم يفهم السؤال.. ربما ابتسم لأنه لم يفهم .. أنا أيضا أبتسم ببلادة عندما يصادفني أمر لا أفهمه .. وربما فهم سؤالي ولكن عدّه سؤالا ساذجا ولهذا ابتسم ساخرا .. أنا أيضا أبتسم بسخرية حينما أجلد بسؤال ساذج .. سوف لن أسأله إذاً .. ولن أسأل المضيفة لماذا تضع الوجبة أمامي ولا تضع شيئا أمامه ؟ .. لن أسألها لأن ردها سيكون جاهزا : مهمتي خدمة ركاب المقاعد ولا دخل لي بركاب الأجنحة.. وطبعا ستقولها بسخرية لأنها واثقة أنْ لا رجل معلق بالجناح.. وأنا واثق أنها بلهاء .. والطائرة ستصل وأنا لم أعرف بعد لماذا تعلق الرجل بجناحها؟ (أقصد جناح الطائرة لأن المضيفات لا أجنحة لهن مثلما أن الطائرات لا ترتدي تنانير باهتة الألوان) .. ولكني سأعرف .. سأتشبث بهذا الخيط : الرجل يشبهني.. لذا، سأفترض أن حكايته تشبه حكايتي: قام فجرا.. حزم حقيبة ملابسه .. وقبل أن يخرج لمح أباه يخلل ما بين أصابع قدميه بالماء إسباغا للوضوء.. قال الأب بحنان ممزوج بالوقار:

ـ أما زلت مصرا على السفر يا بني؟

ـ نعم يا أبي .. لا بد أن أصل إلى الحقيقة

ومن خلفه يأتي صوت الأم منكسرا :

- ولم لا تبحث عنها هنا يا بني؟

يقاطعها الأب :

- دعيه يا امرأة .. الحكمة ضالة المؤمن

أنى وجدها أخذها .. اذهب يا بني ..

ولكن من حقك عليَّ أن أذكرك

بحكاية الشاة التي خرجت من القطيع

فاستفرد بها الذئب

لا يا أبي.. لست شاة ولن أكون.. عندما أصل إلى الحقيقة سأكون ذئبا بألف ناب وناب.. ولكي أصل إليها سألقي بنفسي في أتون الأسئلة، دون أن أرضخ للأجوبة المحددة سلفا.. سأسأل، وأسأل، وأسأل.. وها أنا أسأل: لماذا اختار هذا الرجل أن يتعلق بجناح الطائرة ؟.. ولكن لماذا أنا مصر على أنه اختار؟.. لعله لم يختر ذلك.. قد يكون فعل هذا لأنه لا يملك ثمن التذكرة.. ولكن من لا يملك ثمن التذكرة ليس عليه أن يسافر.. فقط عليه أن يدفن نفسه في الوظيفة، ويأكل، ويشرب، وينام، ويتشاجر مع زوجته، ويلعب الورق مع أصدقائه.. ولكن ليس عليه أن يسافر.. هذا في الأحوال العادية.. أما في حالة هذا الرجل فان الوضع مختلف.. لأنه .. لأنه .. ماذا سأقول؟.. سأقول لأنه تلقى مكالمة دولية من المستشفى الذي يعالج فيه أخوه تقول إنهم - أي الأطباء - يئسوا من العثور على متبرع بكليته .. وأخوه يعيش بكلية مصابة بالسرطان .. الكلية الأخرى استأصلوها بسبب السرطان أيضا .. ماذا سيفعل ؟ أخوه مهدد بالموت في أية لحظة .. أمضى أياما وليالي في البحث عن متبرع بكليته، وعن

متبرع بثمن تذكرة يسافر بها إلى أخيه لكن دون جدوى.. ماذا سيفعل ؟ .. لينقذ أخاه لا بد أن يتبرع له بكليته.. ولكي يتبرع لا بد أن يسافر .. ولكي يسافر لا بد من تذكرة .. ولكي يحجز تذكرة لا بد أن يكون لديه مال .. ولكي يكون لديه مال لا بد أن يكون لصا .. وهو لا يريد أن يكون لصا لأنه رجل محترم .. أخوه أيضا رجل محترم ولكنه سيموت.. المحترم سيموت لأن غير المحترمين لا يريدون أن يتبرعوا.. لا حل آخر إذاً.. غافل موظفي الأمن في المطار وتعلق بجناح الطائرة .. ولكن ماذا لو وصل متأخرا؟.. ماذا لو اكتشف هناك أن كليته لا تصلح لأخيه .. ماذا لو انتبه إليه رادار المراقبة الجوية ؟.. هو لم يفته هذا الأمر لذا ارتدى قميصا وبنطالا أزرقين بلون السماء لكيلا يفطن إليه أحد .. هل قلت «أزرقين»؟ .. من الذي يرتدي في بلادي عادةً ملابس زُرقا ؟ .. إنهم عمال النظافة .. إذاً فالحكاية لا علاقة لها بالكلى ولا بالسرطان ولا باللصوص ولا بالمحترمين .. الرجل هو عامل نظافة بالمطار.. مسح الطائرة كلها بحيث لم يتبق إلا الجناح الذي وصل إليه منهكا (بالطبع الرجل هو المنهك وليس الجناح).. استلقى على جناح الطائرة وغط في نوم عميق لم يصح منه إلا في السماء.. ولكن ألهذا الحد هو منهك مسح طائرة ؟! بالطبع لا .. ولكن الرجل لم ينم طوال الليل .. لماذا لم ينم؟! .. لأنه ... سأقول لأنه كان يكتب قصيدة.. إذاً فهو شاعر.. عامل النظافة شاعر.. الشاعر عامل نظافة.. داهمته القصيدة أول الليل وأشرقت الشمس وهو لم يكمل كتابتها بعد (أؤكد أنني أعني القصيدة فلم أسمع بعد أن أحدا تمكن من كتابة الشمس).. وكان عليه أن يذهب إلى المطار وإلا فقد عمله ولم يجد ما يعيل به طفلته الصغيرة ، طفلته المريضة بشلل الأطفال..

استلقى على الجناح , فنام , فطار.. هو الآن شارد الذهن.. ربما يحاول إتمام القصيدة ..وربما يفكر في شلل الأطفال.. أو لعله يفكر انه عندما يصل إلى المطار لن يجد من يقول له الحمد لله على السلامة .. لن يقولها له أحد.. أما أنا فقد قالتها لي المضيفة : الحمد لله على السلامة .. قالتها بابتسامة عريضة.. إذا فهي لم تغضب مني على إزعاجي للركاب .. يا لقلبها الطيب !.. ولكني لم أزعجهم .. عليَّ أن أراقب خطواتي جيدا حتى لا أتعثر على السلم.. المضيفة لن تتعثر لأنها لا تنظر إلى أبعد من قدميها .. الآن سأتوجه إلى الجناح لأسأل الرجل عن حكايته.. لكنه غير موجود.. لا بد أنه هرع إلى غرفة العمليات لإنقاذ أخيه.. أو لعله وثب إلى أقرب كابينة هاتف ليطمئن على طفلته .. أو ربما هرول إلى الشارع ليستكشف هذه المدينة الجديدة.. لا بد أنه سعيد الآن : أرض جديدة .. سماء جديدة .. وجوه جديدة .. أكسجين جديد.. ماذا يريد أكثر من هذا؟ ماذا أريد أكثر من هذا .. يا هذه المدينة أنا قادم بأسئلتي.. سأنثرها على ترابك سؤالا سؤالا.. ويا موظف المطار إليك سؤالي الأول :

من فضلك .. هل رأيت رجلا يرتدي قميصا أزرق , ويشبهني .



جوخة الحارثي

أستاذة في كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس ولها أعمال قصصية وروائية عديدة اضافة إلى مجموعة من الدراسات الأدبية

العرس

القاعة واسعة، و«كوشة» العروس مزينة بما أمكن من ورود وستائر بيضاء ووردية، النساء جالسات حلقات حول الطاولات هنا وهناك ، وسلومة جالسة على كرسيها، ظهرها مستند بكامله على المسند ، ورأسها لا بالمرفوع ولا بالمطأطئ، يداها على حجرها بالخواتم الذهبية والفضية والأساور والخرز، وقدماها ثابتتان على الأرض بخلاخيلهما ، وعلى فمها شبه ابتسامة، كأن فيها من الرضا والمباركة شيئا، أما نظرتها فثابتة ، ممتدة على مدى أفقي، لا تكاد ترمش ، في رنو مسترخٍ على العروس.

وطوال فترة الحفل التي امتدت لأكثر من ساعتين لم تتحرك سلومة من مكانها، ولم تحرك طرفا من أطرافها ، ولم تتغير ابتسامتها المطمئنة وجلستها الواثقة، كأنها قد خلقت لذلك الكرسي ، وطوال حياتها لم تعش في غير هذا المكان، كأن سلومة قد وجدت هناك منذ الأزل فوجودها متصل وسيتصل أبدا.

لم تحظَ سلومة في حياتها - التي حظيت بعشرة رجال على الأقل - بعرس كهذا، لم تجلس قط على «كوشة» مهفهفة الستائر ولم يخطر ببال أحد من عرسانها أن يجلس بجانبها ويمسك يدها أمام الناس، في كل مرة كانت تزف مغطاة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بشال أخضر ثقيل، موشى بخيوط ذهبية أو غير موشى - حسب غنى العريس - ومضغوطة الجسد بين أجساد النساء الضاجة بالصخب والغناء ، تزف رأسا من بيتها إلى بيته، حيث تُفرَش زاوية ما بسجادة صغيرة، تقعد عليها لا تكاد تتنفس من ثقل شالها الأخضر، وحولها النساء حلقات على الأرض أمام صواني الحلوى ودلال القهوة المرة ، وما إن يظهر موكب الرجل حتى تتلاشى مواكب النساء، ينفض السامر، فلا يرى غيره نظراتها القاطرة دلالا وعاصفة الأساور والقلائد والحروز والخلاخيل الذهبية والفضية والبلاستيكية الملونة التي لا تنوء سلومة أبدا بحملها.

هذه الليلة، على هذا الكرسي الذي صنع لأجلها ، تتجلى سلومة في ألق بهائها، عيناها الناعستان - طبعا أو تطبعا - المكحولتان بالكحل البلدي

الأسود، مستكينتان على العروس، والعكفة تبرز حجم ضفائرها من تحت غطاء الرأس المنقوش، والبدلة الذهبية على شكل وردة جزء لا يتجزأ من أنفها ، وهذه الثقة.. آه هذه الثقة، لا ريب أن دجاجاتها التسع نائمات الآن، فقد قامت فجرا بتنظيف قنهن وجمع البيض، وأفرغت ما تبقى من صحن الرز أمامهن ظهرا قبل أن تبدأ بالاستعداد للعرس وترتقي حافلة المدعوات الذاهبة رأسا إلى قاعة الاحتفالات في جمعية المرأة بمسقط.

ابتسامتها الخفيفة لا تروم تزحزحا عن فمها،ولا تكشف - إلا بقدر طفيف- عن تجاعيد قليلة تزين ذلك الفم، لا.. لا من سخرية في هذه الابتسامة بل رضا ومباركة، لقد كسبت عدة ريالات من بيعها البيض الطازج، وهذه الدشداشة الهدية الوحيدة التي تلقتها من ابنتها التي تزورها مرة كل عيد، أبوها هو الرابع ، لاحق سلومة - متدلها بمشيتها- أشهرا في الضواحي والأفلاج والسكك الضيقة حتى رضيت به، لأجلها هجر بلده وزوجته الأولى وأقام معها.

بدأ توزيع الطعام، وضعت الصحون والسكاكين والشوك على الطاولات، وبدأت أطباق المشاوي والكيك والمعجنات تدور على سلومة التي لم تعزها أدنى التفاتة ، ظلت بجلستها الثابتة ، ونظرتها المسترخية على العروس الممسكة بباقة ورد طبيعية، وحين عزمت عليها المضيفات ، بدأت تأكل بالشوكة كأنما أكلت بها طوال حياتها، واختارت شراب «شاني» الذي صبغ شفتيها بالحمرة ، وكلما ارتفعت يدها أو هبطت رنَّت الأساور وأصدر العاضد

المخفي تحت كم الدشداشة صوته المموسق ذا التاريخ المشهود في خلب الألباب.

حين نتغامز عليها ضاحكين: «هيه ياسلومة» وأبو البنت، لماذا تركك هو الآخر؟ «تفرد ظهرها، تضع يدها على وسطها، وترمش بعينيها، فنهتف قبلها: «حسد! » ,فتبتسم بجذل, وتضرب فخذها مؤكدة على كلامنا:" إيه والله حسد, كل يوم أجد الشعر والعظام والخيوط السوداء مدفونة أمام بيتي، ماذا يحسدون مني؟..أنا مريضة ووحيدة.. » فنبادر إلى القول إنه ليس هناك من هو أكثر صحة منها، فقد تخطت الستين، وماتزال مشيتها الساحرة تثير تصفيرا من هنا وصيحة من هناك..فيشرق وجه سلومة بالبهجة فرحا بمزاعمنا ، وتؤكد أنها ماتزال تتلقى عروضا للزواج، ترفضها، فكلهم عجائز لايصلحون لشيء غير التذمر..

تمسح سلومة فمها بمنديل ورقي, تبدأ النساء حولها بتسوية ملابسهن وزينتهن، تخرج المرايا الصغيرة من الحقائب اللامعة، تمرر الفراشي الدقيقة على الحواجب, يُعاد صبغ الشفاه، تُكثَّف طبقات البودرة، تمسد بعض الشعور المنسابة بخفة، ولا تملك سلومة- المضمخة الجبين بماء الزعفران - أي حقيبة يد, ولم تكن بحاجة إليها قط، ولاتلتفت إليهن, بل إلى العروس التي لم تتحرك من أمام الكاميرا.

انسـابت النساء في حلقات للرقص، تبدأ كل حلقة بمجموعة صغيرة

تكبر تلقائيا مع كلمات الغناء المختلطـة ببعض الكلمات السواحيلية, وسلومة لاتفهم هذه اللغة على الرغم من أن أحد أزواجها كان يجيدها، ولكن زواجهما لم يدم أكثر من أشهر، يحلو لها أحيانا- في بعض جلسات النساء ضحى- أن تقلده: تستلقي فجأة على ظهرها، تضع رجلا على رجل، وتتكلم بصوت خشن محاكية لهجته تماما: لا والله لم أرتح مع امرأة أكثر منك يا سلومة.. أنتِ نعمة.. أنت عطية.. أين أنتِ من زمان؟.. آه.. خذي المندوس.. خذي الحمارة.. خذي النخلات.. أين كنتِ ياامرأة؟.. «ثم تعتدل جالسة وتضحك:» وبعد أن وضعت الولد ذهب، وذهبت النخلات والحمارة.. حسـد.. كلما جاء البيت ولم يجدني، قالت الحاسدات: ذهبت مع عشاقها.. كذب.. يحسـدنني.. علام؟.. «أنا مريضة ووحيدة..» وتبتسم غامزة بعينيها، فنبادر إلى القول : «أنتِ بألف صحة وعافية.. ولستِ وحيدة فقد خرج ولدكِ من السجن.. سيتزوج .. وتشاهدين أولاده..» هل يخطر ببالها الآن تحت هذه الأضواء الملونة الراقصة ووقع الكلمات المغناة صور أحفادها المرتقبين؟ أتفكر فيمن سيشبهون: ولدها الوسيم كأبيه أم أمهم التي ستكون هندية على الأرجح اختصارا للتكاليف؟ ليس بوسعها إقامة حفل زفاف كهذا لولدها, ولا حتى حفل تقليدي, سيتزوج بهدوء وسترى أولاده.. أما ولدها الآخر فلا حلّت عليه الرحمة, لم تره منذ سنوات ,ذهب يوم ذهب أبوه- السابع الذي ابتنى بها في سنة المحل- ولم يسأل.

انسحبت النساء من حلقات الرقص وتهالكن على الكراسي, تململت العروس قليلا، وحدقت في الباب، خفتت أصوات الغناء وبدأت بعض المدعوات بالانسحاب، وظلت سلومة مستندة براحة على الكرسي ومبتسمة بطمأنينة لا تشوبها شائبة، وحين أسرت لها جارتها إن الحافلة ستتحرك عائدة إلى البلد , نهضت أخيرا باستقامة كأن آلام « الديسك » لم تعذبها قط، مشت صاعدة إلى الكوشة، وضعت يدها على رأس العروس التي طأطأت قليلا خوفا على تسريحة شعرها، تمتمت سلومة بالفاتحة , ثم سارت - بمشيتها تلك التي جعلتها عروسا عشر مرات- وسط القاعة المزدانة، وخرجت إلى الحافلة.



الخطّاب المزروعي

كاتب قصة له "لعنة الأمكنة" عام 2013 و" الرائحة الأخيرة للمكان" عام 2011

ما يحدث

نَهضْتُ مُنزعِجاً، بعدما أيقظني الصداعُ الذي يكادُ يفجِّرُ رأسي مِنْ أثرِ الخُمار.

اتجهتُ إلى المطبخِ، وأعددتُ كوبَ قهوةٍ ثقيلٍ حتى أزيحَ الوجعَ، تمشيّتُ متجهاً إلى الشُرفةِ المُطلةِ على بُستانِ النخيل؛ لأشَمَّ كمية أوكسجين متمنياً أنْ يخُفَ الصداعُ.

جلستُ على الكرسي وأنا انَظرُ إلى البستانِ الذي يقعُ أسفلَ التلةِ مباشرةً التي يعتليها ضريحُ قيدِ الأرضِ.

ها أنا وحيدٌ ليس لدي أحدٌ أشاركه صداعَ رأسيَ الثقيلُ الذي بدأ ألمهُ يضغطُ على ناصيةِ الوجه لينزلَ الألمُ مباشرةً إلى عينيّ، ضغطتُ بإصبعيّ الإبهامِ والوسطى على مقدمةِ جمجمتي بشكلٍ متواصلٍ. عدّلتُ من جِلْستي على الكُرسي وأنا أناظرُ الضريحَ؛ ترى ما الذي يفعلهُ قيدُ الأرضِ في هذه اللحظةِ، هلْ مازال يقظاً ويعرفُ ما يحدُثُ؟

كيف يعرفُ وهو ميتٌ؟ جاءَ السؤالُ من داخلي الملتبسِ بأشياءَ قديمةٍ مُربكةٍ. حدثَ ذلك عندما كان عُمري ستَ سنواتٍ، وأنا مارٌّ بجانبِ قبرِ جدي الميتِ منذ ثمانينَ عاماً، وقد دُفِنَت زَوْجَتُه بجانبه ، حقيقةً لا أعلمُ من ماتَ منهما أولاً وهل أوصيا بدفنهما بالقربِ من بعضهما وفي مكان منعزل؟ صادف ذلك وأنا أمرُّ بجانبِ القبرين أنْ وجدتُ عمي يُتمتمُ بشفتيه؛ وما كدتُ أمرُّ عنه حتى ناداني: تعال لماذا لا تسلم على جدك؟ إرتبكتُ ..مَنْ جدي؟ هذا قبرُ جدك. قال وأشارَ إلى القبر. عندما تمرُّ في كل مرة بجانبه فقل: "السلامُ عليكم دارَ قومٍ آمنين ، أنتم السابقونَ ونحن اللاحقونَ».

لكِنَّ الفرقَ خمسونَ عاماً بينَ سنةِ ولادتي وموتُ جدي ، كيف سيعرِفُني؟

هل يعني هذا أن الأمواتَ يسمعونَ، ويعرفونَ ما يحدث، وإلا ما كذبَ عليّ عمي، فهو إمامُ مسجدٍ، ويُصلي باستمرارٍ، إذا لا بُدَ أنه لا يكذبُ. ولكنْ كيفَ سيعرفُ جدي عبدالله أني حفيدُه، وأُدْعى عبدالله وقد سُميتُ بذلك تيمناً به، فهو كما يصفه أبي قويٌّ وكريمٌ.

إذاً الجثةُ التي تقبعُ داخل القبر، وفوقها مئاتُ الأطنانٍ من التراب؛ والتي

تعتلي التلةَ المقابلةِ لي؛ تعرفُ ما يحدث!

ارتشفتُ قطرةً من القهوةِ وأخذتُ أمجُّها داخلَ فمي؛ فانتبهتُ إلى أنَّ الصُداعَ بدأَ بالتلاشي، وضعتُ الكوبَ على الطاولةِ الصغيرةِ ودخلتُ إلى المطبخ وأحضرتُ كأسِ ماءٍ، شربتُ نصفه ووضعتُ الكأسَ على الطاولة.

أطلقتُ ناظري للمشهدِ الذي أمامي بعدما جلستُ على الكرسي إلى البستان الذي يقع تحت ناظري مباشرة؛ جزيئاتٌ من أضواءِ أعمدةِ الشارعِ تتساقطُ على رؤوسِ نخيله، هبّتْ نسمةٌ باردةٌ اِقشعرَّ لها جِلْدُ زَنْدي نظراً لكوني لا أرتدي سِوى مَلابسَ النومِ.

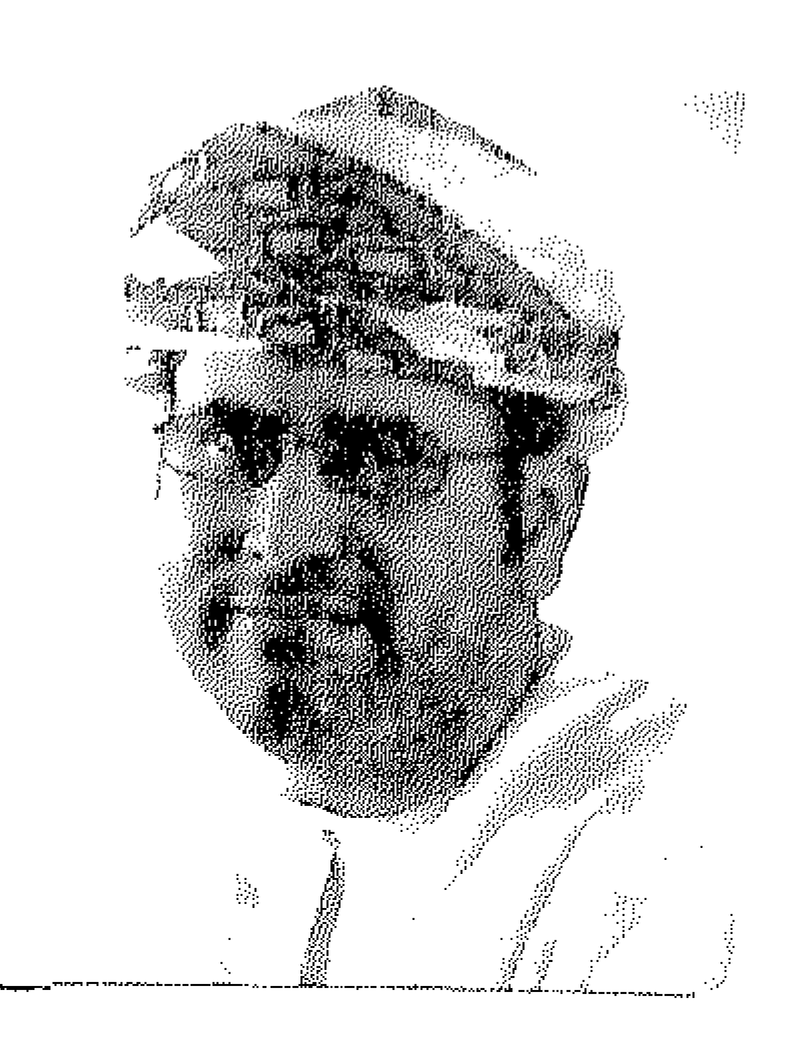
كان البخارُ يتصاعدُ من فُرَضْ فلجِ الصايغي؛أخذتُ أشاهدُ البخارَ المتصاعدَ، أحسستُ بالدفِء يتسللُ إليّ، رُغمَ النسماتِ الباردةِ التي أخذتْ تتوالي مع طلوعِ الفجر، إذاً بإمكاننا أن نُحول الأشياءَ من خلالِ النظرِ إليها؛ إلى أجسادنا مِنْ مجردِ النظرِ لها والإيمانُ بأنها شيءٌ جميلٌ ورائعٌ سنُحِسُ بجزيئاتها، وبقيمتها الحقيقيةِ، ومكوناتها الفيزيائية. أليسَ هذا ما أشعرُ به على الأقل؟.

أخذتُ أنقلُ بصري بين الضريحِ ومنظرِ بخارِ الفلجْ..ياه.. ضريحُ قيدِ الأرضِ، وفلجُ الصايغي؛ أيضاً مَنْ صاغهُ... قيدُ الأرض؟

ولكن هل صحيحٌ أنه بناه بمساعدةِ الجنِ، بناهُ في ليلةٍ واحدةٍ؟ قلتُ: لا يُمكِنْ. قد يكونُ لديهم من القدراتِ أكثرَ من البشر، ولكن كيف استطاعَ قيدُ الأرضِ أن يأمرهم، وكيف توصلَ لإمرتهم؟

وجهتُّ أسئلتي باتجاه الضريحِ ثُمَ أغمضتُ عينيّ، وتركتُ جهازي السمعي وحده يعملُ بعد أن سحبتُ كميةً ضخمةمن الأوكسجين ...

أصواتُ كلابٍ،ضحكةُ امرأةٍ، أصواتٌ بعيدةٌ لبشرٍ، هديرُ محركِ سيارةٍ تمرُّ بشكلٍ سريعٍ، أصواتُ حشراتٍ، حفيفُ شجرٍ، رجلٌ يكحُّ، صوتُ ريحٍ ناعمةٍ، ضُلفة شباكٍ تصطدمُ بأخرى، أذانٌ، أذانٌ.. أذانٌ..أذانٌ..أذانٌ..أذانٌ.. أذانْ .



هلال بن سيف البادي

كاتب وإعلامي ومصور فوتوغرافي، كتب المقال والمسرح والقصة والرواية، وقدم العديد من البرامج الثقافية الاذاعية، من أعماله القصصية "مجرد خيال عابر" 2005 و"لا يجب أن تبدو كرواية" عام 2006 وله مسرحية "مسرحية ما حدث بعد ذلك" الفائزة بجائزة (الهيئة العربية للمسرح)عام 2010

مقاطع لرجل يريد أن ينام!

فجرا ، قبيل «الله أكبر»:

لم تغمض عينيك بعد ، ولا وضعت رأسك إلى يمينك وتوسدت حلمك ونمت!

تريد أن تنام لكنك لا تستطيع .. رأسك كجرة مثقلة بالماء، توشك أن تسقطها فتنكسر! تبحلق الآن في اللاشيء، في الظلمة، في الخط الفاصل بين الأبيض والأسود من الفجر! وصور تتداخل في ذاكرتك الوهنة..

صور عديدة،

صور مليئة بك،

بانهزاماتك المتكررة..

انهزاماتك.. هذه التي تقض عليك مضجعك، وتسلبك تلك اللحظة الجميلة من النوم أو من النسيان.. تلقي بك في أحضان الصحو المقيت ساعة الفجر لتتذكر حبيبة طار طيفها كالحمام وما عاد! حبيبة قالت لك ذات بداية «إحساس قاس: أن تمتد يداك في الفراغ فتعود بلا شيء.. «.. وها أنت تطارد طيفها كي تعود ، تمد يديك في الفراغ فلا تجد غيره وحده يعربد ولا تعود بشيء أبدا.. وسفرك لا ينتهي ولا يتوقف عند محطة.. تظل مسافرا في الفراغ باحثا عنها حيث لا حد للفراغ، ولا أبعاد يمكن أن تلامسها هناك لضياعك !!

وهي، صور مجنونة تتلاحق.. صور مليئة بأسباب اندحارك من جديد، هزيمتك العظيمة التي لم تعد تتوقف عند حد.. صور تحاول التقاطها كي لا تغيب.. صورها التي طارت في فضاء الغياب.. وكلما غامت الصورة؛ أيقنت بحدسك السيئ أنك تفقد وجهك، وما تحمله الآن ليس سوى بداية زيف!

من الخارج ينقل لك شباك غرفتك المجاور لروحك احتكاكات آخر الليل على الإسفلت.. سيارات مخمورة تعب الطرقات الآن، ويستهوي أصحابها أن يحرقوا إطاراتها في الإسفلت كما يطفئ المدخن، بلذة، سيجارته في منفضة السجائر!

ولكأن ذاكرتك الآن إسفلت..

كأنها شارع يلاقي حتفه بفعل الاحتكاك..

أي قدر هذا الذي يشكل حكايتك بالخسارة والانهزام؟ أي حكاية هذه التي يجب أن تكون فيها كديك منتف الريش؟ أي خيبة هذه التي لابد أن تغنيك وتغنيها؟ أي نشيد هذا الملزم بأن تكتب تفاصيل انهزامه؟ ..

لستَ بطلا..

لا فارسا ولا صنديدا ولا شهيدا..

نعم .. لست سوى أنت المنهزم منذ رحيق الولادة الأولى، منذ أن جاءت بك أمك إلى هذه الدنيا في سبتمبر كئيب ، تكتشف الآن أنه أسوأ الشهور في العالم!!

ربما لأنه بداية الخريف!

تولد في لحظة التساقط ، لحظة الاصفرار.. ولذلك تعاستك مزمنة!!

هل ينبغي الآن أن تصدق رسالة صديق «ستعيش متشردا ما دمت تحترف الألم»؟! لكنك لم تحترف ألما، ربما هو من اختارك..

وهذا هو السر..

أنك متشرد، والمشردون شاءت حكاياتهم أن ينالوا وافرا متميزا من الأحزان والانهزامات.. ولأنك متشرد أبدا، فقد احترفت الألم!

المرآة في السادسة صباحا:

لا تظن أني أعكس وجهك..

أنا أعكس خطيئة والديك عندما أتيا بك إلى الدنيا!! لكنهما لا يعلمان ما يخبئه القدر، ولذلك فرحا بك.. رغم أن والدتك كانت تعاني بلاء حملك،

ورغم أن مدتك في أحشائها قد زادت عن الحد المفترض، ورغم أنك جئت للدنيا دون أن تشرف على مجيئك الصعب قابلة أو ممرضة!!

ولذا دعنا نكن متفقين بأني لا أعكس وجهك..

لا تحدق فيه كثيرا، لأن العينين لن تكشفا لك سوى مزيد من التعاسة، ثم إنك مصاب بانحراف في قرنيتي عينيك ولذلك لا ترى جيدا، إلا من خلال منظار طبي!!

لن تكتشف سوى تعاسة وأحزان معربدة ..

لن تكتشف سوى أنك وهذه التعاسة صنوان، وأن وجهك والحزن كسطر عالق في ورقة بيضاء! لن تكتشف سوى مزيد من العذاب الذي أقرته عيناها ذات رحيل مفجع! عيناها اللتان تراهما الآن من خلالي ، وتحاول أن تلامسهما لكنك لا تستطيع أن تصل إليهما ، ولا أن ترى عينيك!

ولذا فأنا لا أكشف إلا تعاسة مغرقة في القرف! والماء الذي تهيله الآن على ما تعتقده وجها لك، كما يهال التراب على جثة لم تكفن بعد، لن يفلح في أن يخلصك من تعاستك / وجهك في المرآة !

الماء، يا سيدي العزيز، عدو خطير لك.. لأنه سيغسل الشوائب، ويجعل الرؤية سليمة وواضحة.. ساعتها ستتجلى كل فصول التعاسة التي تهرب منها ولا تستطيع إلا أن تلاصقها كجلدك!

ولا الصابون أيضا ..

ولا موسى الحلاقة سيفلحان في خلاصك .. هما الآخران عدوان لك !

في السيارة على الطريق عند السابعة وعشر دقائق :

كل شيء..

كل شيء يذكر بك يا ميّ.. ليست رسائلك التي أخفيتها بعيدا عن نفسي، ولا صوتك الذي أوغل في ذاكرتي، ولا صورا لحياة عشتها في قِصَرٍ معك، هي وحدها ما يمكنه أن يذكرني بك.. لكأني لا أريد نسيانك، وأنا لا أريد !! كيف ينسى المرء نفسه!! كيف يتسنى له أن يتغافل عن روحه؟ كيف..

كل شيء ..

كل شيء يذكر بك..

مجرد أن أنظر في المرآة في عينيّ أراك.. لم تعد عينيّ ، صارت عينيك.. مجرد أن أفتح المذياع أو أستمع إلى أغنية أتذكرك.. كاظم، مارسيل، فيروز، ماجدة.. آآه يا ماجدة.. كم غنت «عيناك ليال صيفية ورؤى وقصائد وردية» وكم كنت عذبة الصوت يا ميّ! كانت تقول : عيناك يا حبيبي بحران من ألق.. وأنا أصبحت بعدك لا أرى بوضوح، حتى الماء ما عاد يغسل عني غبار هذه الحياة، فكيف يمكن أن أرى وأنا لا أملك قدرة النظر إلا من خلال زجاج؟!!

حتى أن أنظر الآن في الشارع الممتد المملوء زحاما يذكرني بك .. كانت تقول «لا تنظر كثيرا للشوارع، فمن ستراهن هناك لسن إلا بنات شوارع»!!.. وتضغط أكثر على «شوارع»... غيورة حتى من الشارع الأسود.. يا وجعا يمتد كل حين في خاصرتي.. كهذا الزحام الذي يحاصرني الآن بعد ليلة مسهدة.. ما هن إلا بنات شوارع يخرجن الآن يلتقطن أنفاسهن المتعبة من ليلة مملوءة بالقيح! ما هن إلا وجع يثقل كاهلي عندما أدرك أن ثمة جوع عربد في الداخل ، فأحالهن إلى الشارع!!

الشارع الذي يزدحم الآن بالناعسين، بالفاترين، بأولئك الذين تحكي وجوههم قصصا لا تنتهي من الألم والضياع، الذاهبين إلى اعتيادية الوجع الصباحي كل يوم، المتخمين باضطرابات الحياة المملة!!

وهم أيضا، جميعا ، يذكرونني بك..

وجوههم المشتعلة بالغياب تذكرني بك يا ميّ..

حتى عندما يُسقِط المذياع لهيبه الصاعق كل صباح أتذكرك، عندما يعلن عن حصيلة جديدة من اليتامى والموؤدين، عن جنود سقطوا، وآخرين انهزموا.. عن مخططات واتفاقيات ومظاهرات.. عن نفط منهوب، ولصوص، وحكومات، وأسواق ووو.. أتذكرك..

«ألسنا جبناء».. هكذا تساءلت، ذات مساء متقيح، بسخرية العارف لذلك الأمر.. لذلك افتر ثغرها عن ابتسامة حزينة، ثم رتلت «فهنا يبكي على بعضيَ بعضي!!»..

عالم خائن، مليء بالوجوم.. قتلى.. دماء.. انهيارات.. حروب.. بغداد سقطت ولم يعد ثمة أمل لجريح في أن يمتطي صهوة حصانه الضائع!! وما لجرح بميت إيلام..

ماذا أيضا اليوم ؟

وأنا الآن أمضي في فضاء ضائع.. أقتات وقتي ببلاهة الضعفاء.. أنتظر هذه الإشارة الحمراء أن تنطفئ كي تعلن أختها الخضراء السماح لي بمواصلة العذاب، ما زلت أتذكرك!

ما بين رسالتها الأولى «للقائنا بوح الأماني الغائبة» ورسالتها الأخيرة

« صعب أن نلتقي، هكذا شاؤوا، ولذلك لابد أن نرحل « ثمة رحلة جميلة من الحب الذي لا يتكرر، وثمة أحزان كتبناها قبيل الرحيل.. ألا تعسا للقبيلة التي حاصرت لقاءنا.. تبا للخذلان الذي شكل صورتنا الجبانة.. تبا لهذا العالم المقيت الذي أخذك مني يا ميّ!!

على طاولة في مقهى صغير مع صديق يثرثر:

كانت فاتنة، فاتنة ومغرية حتى آخر نقطة.. ولم أشبع .. ظننت أنني سأظل عطشا للأبد..

صدقني، هذه تختلف عن كل واحدة التقيتها.. لا تسخر مني، هذه المرة أقول كلاما جادا.. إنها ليست واحدة من اللائي لا يهمهن سوى بضعة ريالات تأخذها بعد جدل عقيم!! ليست كذلك.. إنها المتعة بذاتها!! هل جربت المتعة يا صاحبي؟.. لا تقل لي عزيزة أو أمل أو سوسن.. كلهن جميلات وكلهن ممتعات، ولكن عواطف هذه تنسيك الدنيا بما فيها، تبحر بك إلى أقاص بعيدة، إلى الغيوم.. إنك ستطير لو جربت الهوى معها.. ستنسى هذا العالم القلق.. ربما لن تراودك أحلام متيبسة، أو كوابيس نارية.. لن ترى في منامك أنك في صحراء، وأن الأرض تشتعل.. ستنسى العالم الذي يحترق.. ستنسى الخيانة التي تحاصرك، والضعف الذي يغتالك كل يوم.. ربما صرت قويا بعدها.. ربما رأيت أنك شهريار في ممرات ألف ليلة وليلة تمرح بصخب الأيام الحلوة التي مضت!!

لا تقل لي كعادتك الذميمة: ماذا تركت لزوجة المستقبل؟ هذه الزوجة التي لا أعلم متى ستأتي، ولذلك لن أنتظرها.. لست مغفلا.. الفتيات يردن

الكثير، وبقدر عطائك سيهبنك الحياة.. ثم لتعتبرني أقدم خدمة إنسانية.. هن لا يجدن حياتهن، وأنا أبحث عن متعتي! متعادلون.. كل يحقق رغبة الآخر!!

تحسبني الآن عبثيا.. لا، أنت تدرك تماما أني لست كذلك.. اشرب شايك قبل أن يبرد، وتأكد أنني لست كذلك.. أتذكر زوينة.. زوينة زميلة الدراسة؟ أتذكرها؟ لا أعتقد أنك نسيتها.. الآن قد حلت مشاكلها الكثيرة.. تزوجت قبل أسابيع - وقد أهديتها باقة ورد للرحيل - هه، عندما مارسنا رغبتنا قلتُ بعدما أخبرتك «كيف تستطيع أن تواصل حياتها؟» الآن أتذكر ما قلته، وأقول: الفقر في بعض الأحيان ميزة! ماذا يملك أبوها المريض بالسكر غير الفقر؟ وأخوتها صغار، وما من أحد ليرفع الفقر سوى ضمان حكومي بسيط لا يكفي شراء الأدوية الضرورية!!

لكنها استطاعت أن تكسب المال، وتأتي بالعلاج، وتشتري هاتفا متنقلا، وحاسبا لأخوتها، وتغير ستائر البيت كما تقول.. والجميع لم ينبس ببنت كلمة.. أما كيف جاء الزوج، فلا تسألني أنا!! وقد قالت بأنه رجل غني ومهم أيضا..

ربما لجأت إليها فيما بعد كي أحقق ما أريد..

هه.. لماذا وقفت؟ إلى أين تريد أن تذهب؟ لم تكمل شايك! أغضبت؟ لم أخبرك بعد عن أفعالها معي ليلة أمس.. أرجوك اقعد.. سأخبرك ماذا قالت.. سأخبرك أنها ليست عادية، ولا متسولة.. ليست كأي واحدة.. ستخال أن كلامها شعر تبحر فيه!! ثم إنها تعرفك! استرح واشرب شايك وسأخبرك ما قالت عنك! أعرف أنك محزون، وما قالته سيبهجك.. هل تريدها كي تنسى؟ تعال لا تذهب.. دع عنك أحزانك الآن؛ واسمعني.. سأعرفك على عواطف..

فقط تعال لأكمل لك بقية الحديث..

شايك، ألن تكمل شايك!!

مساء قبيل أن ينطفئ المصباح :

جاهد نفسه ألا يفتح جهاز حاسبه الشخصي.. ارتشف الثمالة الأخيرة من كوب شايه الثالث.. كان مارسيل يشدو بهدوء:

« أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي .... »

تذكر والدته المريضة في البلد ، تذكر أباه الذي يظن أنه الآن ينهك نفسه في العمل.. زفر.. عاد والتفت إلى الجهاز من جديد .. أغمض عينيه وانساب مع صوت مارسيل:

« خذيني، إذا عدت يوماً

وشاحاً لهدبُك

وغطي عظامي بعشب

تعمد من طهر كعبك

وشدي وثاقي .. بخصلة شعر

بخيط يلوح في ذيل ثوبك »

أعاد فتح عينيه .. كان الضوء قلقا ! تأفف عندما تذكر أنه كان لابد أن يخبر صاحب البناية للقيام بإصلاح مصابيح الإضاءة الضعيفة .. تأفف مجددا عندما

تذكر قائمة الأعمال التي لم يقم بها : الفواتير ، سلة المهملات ، كتابة تقرير لرئيس قسمه في العمل عن المهمة التي لم يقم بها ، الاعتذار لصديقه عن تركه وحيدا دون كلمة اعتذار أو انسحاب ، ملابسه المتسخة التي تراكمت ولم يقم بإرسالها للغسيل...

ضحك في سره عندما تذكر أنه كان لابد أن يتزوج .. عندها فتح الجهاز.. توقف مارسيل عن شدوه .. المسجلة عطبت من جديد .. عقد حاجبيه سخطا .. « آلات غبية، أجهزة عقيمة بلا فائدة !! »..

فتح بريده الإلكتروني ، وكتب على سطور الشاشة اللامعة :

« ميّ .. أينما كنت الآن .. أنا أحبـ... »

وانطفأت الشاشة فجأة .. انطفأ الضوء كاملا، وساد السواد الأمكنة ..

*

وهذه الليلة أيضا لن تنام !!



هدى حمد *

إعلامية ولها مجموعة أعمال قصصية وروائية منها رواية "الأشياء ليست في أماكنها" الفائزة بجائزة الشارقة للإبداع العربي عام 2009

صـــرار

عيناي معلقتان على سرة طفلي الصغير.. على ذاك المشبك الذي تدلى ممسكا بقطعة اللحم الطرية بعد أن بتر عن حبلي السري الذي كان يربطه بأحشائي.. بحذر تام كنت أحمله إلى الحمام.. أزيح ملابسه وحفاظته برفق.. أمرر الماء على كامل جسده وأحاول جاهدة أن أمنع وصول الماء إلى سرته.. يفتح فمه بالبكاء، ينتفض المشبك، وأشعر بارتجافة عارمة تمر على سائر جسدي خوفا من أن يقع «صراره» وينزلق! ألفه سريعا بالفوطة وأبدأ بتجفيف جسده الغض ابتداء من سرته التي تناثرت حولها قطرات الماء الدافئة، وانتهاء بأصابع أقدامه الصغيرة.. ما يزال المشبك ممسكا بقطعة اللحم التي أوشكت أن تصبح سوداء، وثمة رائحة نتنة تعلق بأنفي كلما اقتربت لأقّبل بطنه الضئيل..

في المساء وعندما يغلق فمه على بكائه أشرد بذهني بعيدا لأفتش في ذاكرتي عن مكان جميل يمكنني أن أخبئ فيه «صراره» الذي سيقع بعد أيام قليلة.. تذكرت «أم عبود» التي احتفظت بـ «صرار» ابنها لزمن طويل في درج سري من أدراج غرفة نومها، وانتظرت بشوق مجيء الوادي ثم قذفت به بكل ما تملك من قوة كمن يقذف بسر كبير إلى غيب النسيان.. لم أستطع وقتها أن أحتمل الأسئلة التي انتشت في رأسي بينما كان الجميع متشاغلون بالحديث عن الوادي والأمطار التي بات يتأخر مجيئها عاما بعد عام.. اقتربت من «أم عبود» كمن يحاول أن يشم رائحة حكاية مخبأة:

ليش عقيتي صرار عبود في الوادي ؟

اغرورقت عيناها بالدموع :

بيصير مثل هذا الوادي .. نشيط وقوي ...

لم يخنها الوقت أصبح «عبود» رجلا قويا كلما مرّ من أمامي أشعر بأنه واد جارف يستطيع أن يأخذ كل شيء معه..

لكن لا.. لا.. لا يمكنني أن أنتظر مجيء الوادي.. مازلنا في فصل الصيف الجاف، ولا شيء يشير إلى هطول المطر..

تأملت وجه صغيري الأبيض الذي يطل من تحت «كمة» رأسه تلك التي خطتها من القماش، وجسده النحيل ملتف في «قماطه» الناعم الذي يمنع حركة يديه وقدميه.. هكذا كعادة كل مساء كنت أحكم وضع «القماطة» على جسده، وأنا أتذكر ما قالته بنت معلم القرآن ذات يوم في «المعصر».. قالت إن الأطفال يخافون كثيرا عندما يرون أيديهم فهم لا يعتقدون أنها جزء من أجسادهم ويشعرون أنها كائنات أخرى غريبة تحوم حولهم.. لذا ينبغي على

كل أم أن تحكم "قمط" أطفالها..

اطمأننت إلى أن طفلي ما يزال مستغرقا في نومه.. سرحت بفكري مجددا وتذكرت «أم علوي» التي لم تنتظر مجيء الوادي.. ولم ترغب في أن يكون ابنها نشيطا وخارقا للعادة مثل «عبود».. ظللت أتردد على زيارتها في الأيام التي بدأ «صرار» «علوي» ينشف، وكنت أصر على سؤالها، وعمري لا يتجاوز التاسعة:

خالوه.. وين بتدفني «صرار» «علوي»؟

كانت «أم علوي» تشيح بوجهها بعيدا عني وتتململ من زياراتي المتكررة، وأسئلتي التي لا تنتهي..

كنت أراقبها وهي تأكل «قروص السمن والعسل» الشهية لتستعيد عافيتها بسرعة، ومن حين لآخر تكشف عن بطن «علوي» وتدعي أنها منشغلة بتغيير حفاظه..

دارت في رأسي الأفكار.. «يا إلهي.. كأن في «صرار» كل واحد منا معجزة إلهية لا يجوز التحدث عنها.. فقط ينبغي علينا أن نراقبها بدهشة وهي تجف وتستعد لحياة أخرى.. في مكان آخر.. اكتشفت منذ ذلك الزمن أن الأمهات لا يربين الأطفال وحسب بل يربين تفاصيل الحكايات التي لا يتأخر مجيئها كثيرا.. حتى الأغاني التي كن ينسجنها في المساء عندما يكابدن السهر على بكاء أطفالهن.. كانت معبأة بشيء آخر غير المحبة وغير انتظار النوم والأحلام.. شيئا يشبه الأوقات البيضاء أو ربما يشبه ما يحيكه القدر من أفراح ومطبات..»

في أحد الصباحات الباكرة طلبت مني أمي أن أحمل "سحلة الحلبة"

إلى "أم علوي" فخرجت مسرعة، وأنا أكاد أنط من فرحي.. لاحظت أنها توشك على الخروج.. اختبأت وراء أحد الجدران التي تظللها شجرة بيذام كبيرة.. كانت هذه هي المرة الأولى التي تخرج فيها «أم علوي» من فراشها ومن التصاقها المحموم بطفلها.. تبعتها بكل الفضول الذي تملكني.. لم تتوقف إلا عندما وصلت قبالة باب المسجد.. تلفتت بحذر كمن يوشك على سرقة شيء ما، وهي تحفر حفرة صغيرة سرعان ما ألقت فيها «الصرار» ودفنت الحفرة سريعا ثم داست عليها بقدمها عدة مرات لكي لا تنبشها خطوات المارة للصلاة.. كانت «سحلة الحلبة» ثقيلة وساخنة.. شعرت بحرارتها تسري في راحتيّ.. لكني عرفت سر «أم علوي» وعرفت بعد زمن طويل لماذا انحنى رأس ابنها إلى الأرض وهو ينقاد إلى الصلاة بخشوع غريب، كمن ينقاد إلى قدره أو إلى حكاية تخصه.. كان يجلس بعد الصلاة لزمن إضافي يقرأ القرآن.. انحنى رأسه كثيرا وكأنه يفتش عن تلك الحفرة التي سقط فيها جزء من جسده لدرجة أن الناس تناسوا «علوي» الصغير.. وتذكروا الشيخ "علي" وبركاته.. فلم يعد أحد في قريتنا يجرؤ على مناداته بغير الشيخ..

«ربما عرفت «أم علوي» أن سرا آخر للحياة يمكن له أن يبدأ من قطعة اللحم الصغيرة والمتعفنة تلك.. ربما عرفت أن روحا أخرى ستنبثق فيها.. وأن الحظ والخطوات سيتغير مسارهما كيفما تسنى لنا أن نتقن اختيار المكان الذي نزرع فيه جزءا من جسدنا..»

أتذكر الآن أن أمي أيضا كانت تنبهنا دائما لضرورة أن ندفن أظافرنا في التراب.. أخوتي كانوا ينثرونها في الهواء أو يتخلصون منها في أقرب سلة مهملات في أحسن الأحوال.. وأنا كنت أقص أظافري وجسدي ينتفض خوفا

من أن تقع قطعة صغيرة ولا أراها.. أمي قالت إن كل ظفر يضيع منا أو لا يدفن جيدا سنضطر لالتقاطه بأهداب أعيننا.. لذا فكرت بطريقة آمنه لا أخسر فيها.. فكرت بحفر حفرة صغيرة في حوش منزلنا لألقي فيها أظافري وأدفنها مباشرة.. لدرجة أنه لم يتبق مكان صغير في حوشنا لم أحفر فيه حفرة، وكنت في كل مرة أعلق الأماني قبل أن تشرع يدي بتغطيتها.. أماني كثيرة لا تعد ولا تحصى.. أماني كانت تتحقق، وأخرى تذبل على شجرتها.. وثالثة كانت تغير مسار حظي وخطواتي..

والآن يلح علي هذا السؤال المتعب.. أصبحت سرة طفلي ناشفة، وقد وضعت عليها زيت الزيتون.. ستقع صباح الغد أو في مسائه على أبعد تقدير.. لكن أين عساي أدفنها؟ أين سأودع سره؟ وأي مكان يمكن للحظ أن يبتسم فيه أكثر؟ وأي تربة يمكن أن تتشابه مع عجينة روحه؟

أقع الآن في حيرة من كل الأمكنة.. فلكل طريق باب وخلف كل باب تتفتح وردة أو يعصف جحيم.. لست مطمئنة.. أخشى أن تتسرب رائحة السرة إلى الجارات، وأن تتناقلها الوشايات الدنيئة.. وأن تضيق الخيارات أمامي كلما اتسعت الأمكنة..

انقدح في ذهني شرار فكرة مجنونة.. انقدح المكان بكل تفاصيله.. المكان الذي تمنيت أن أذهب إليه وعلقت أمنيتي بذلك على كل حفرة طمرت فيها أظافري ولكن الأماني خذلتني ولم أستطع الذهاب إليه.. الجامعة! نعم، الجامعة!..

لا أريد أن يكون ابني نشيطا كالوادي، ولا أريده أن يكون إمام مسجد.. أريده أن يدخل الجامعة.. هذه أروع فكرة يمكن أن تخطر بذهني الآن..

سأنتظر أن يأتي زوجي من سفره البعيد.. وسأطلب منه أن يذهب إلى العاصمة ويزرع "صرار" ابننا بالقرب من كلية الطب أو الهندسة.. أمي قالت أن تلك الرائحة التي ستنبعث من قطعة اللحم الصغيرة، والمدفونة بسرية تامة ستكون كالقوى الخفية التي ستجلبه ذات يوم إليها.. لا شيء كتلك الرائحة سيدله على خطاه، ولا يمكن لأي منا أن ينفصل عما يخصه من تفاصيل..

«في البداية لم أصدقها.. قلت في نفسي إنها من خرافات الأولين، لكن الحكاية بدت مغرية.. فأحدنا لا يعدو أن يكون أكثر من جملة الأفكار التي يصدقها.. لذا قررت أن أصدق أمي هذه المرة أيضا لكي أطمئن إلى أن حاسة الشم ستقود طفلي إلى مكان رائحته تماما..»

لم يخرجني من نشوة الفرح بتلك الفكرة إلا بكاء طفلي.. قربت أنفي من حفاظه فانبعثت رائحة كريهة بت أعرفها جيدا..كان لا بد من أخذه إلى الحمام للتبديل.. لذا حملته بين يدي.. أزحت الحفاض المبتل والملوث.. فتحت صنبور الماء.. مررت يدي لأغسله.. فانفلت «الصرار» من جسده دون أن انتبه.. حاولت الإمساك به إلا أنه تسارع راكضا مع الماء.. ولم أفق من ذهولي إلا على صوت وقعه في البلاعة..



نمير بن سالم آل سعيد

كاتب قصة ومقالات وله عدد من الأعمال القصصية المطبوعة منها "سفر الغياب" وآخرها "مقدر أن يكون"

صاحب العربة الذهبية

ربما حدث ذلك صدفة أو ربما ما أبصروه في ذلك المساء كانوا في حاجة لأن يروه فتجسد أمامهم أو ربما شبه لهم فاعتقدوا بأنه الحقيقة، والاعتقاد قادهم إلى الايمان بما رأوه، مشهد عجيب لم تقع أعينهم على مثله.

المدينة هي المدينة منذ آلاف السنين والناس والخطوات والطريق يعبره الكثيرون ثم تبتلعهم نهاياته..

في ذلك اليوم اختلت المواعيد وتغيرت المواقيت وازدحم الطريق وحدث ما شد الأنظار وأثار الانتباه ولم يبرح المارة أماكنهم.

الجميع لم تجمعهم معرفة ولكن الحدث جمعهم، تحادثوا فيما بينهم وتلفظت آلسنتهم بالأسئلة.

قال الأول: انظروا هل ترون ما أرى؟

قال الثاني: أهذا يحدث حقيقة وأمامنا؟!

قال الثالث: ان كنت أشك في وجودي فأنا أشك فيما يحدث.

قال الرابع: لا أؤمن بالخوارق ولكن بعد الآن أعيد النظر فيما أصدقه ولا أصدقه.

قال آخر: إن هذا يحدث على مرأى من الجميع ولا مجال لتجاوزه أو إلغائه.

وأنا عائد من العمل اصفّر سعيدا، مفكرا في الراحة التي تتبعها مسألة الاجهاد اليومية ومحتفلا بمرور اليوم على خير، دون أن أكون معذبا بأمراض لا فكاك منها، أو أكون قتيلا ضمن ركاب طائرة سقطت لتوها وتحطم جميع ركابها ولم يسلم أحد، أو دون أن أكون طرفا في حادث سير يطبق علي انسحاقا بين اصطكاك الحديد بالحديد قاطعا علي مشوار حياتي الذي أتشوق لمتابعه أحداثه.

انتهى اليوم مدعاة الاحتفال ليفتح اليوم الجديد أبوابه ليؤهلني للتمتع بكل ما يحمله من طيبات حياتية وكأحد رواده أعيشثوانيه ودقائقه وساعته، وتفكيري منصب على هؤلاء الذين أتوا متى أتوا؟ واكتظ بهم المكان. لم أطرح أسئلة، كل ما كنت ابتغيه أن يفسحوا مكانا صغيرا للعبور.لم يكن مطلبا غيد

مشروع فهذا الطريق يؤدي إلى بيتي وليس من العدل في شيء أن لا أستطيع الوصول بينما كثيرون يتقدمون أمامي ويسدون الطريق..

تحركت أشق طريقي بين الجموع ولما رأوني التفتوا إلي ثم التفوا حولي.

قالوا: عربة ذهبية أمام دارك وتباركوا بهذه العطية الالهية.

قلت: لا بد أن يكون هناك تفسير عقلاني فلا يمكن أن تظهر عربة ذهبية عيار واحد وعشرين أمام بيتي فالمعجزات حصلت في الزمان البعيد.

قالوا: ه، مس شيطاني إذن.

قلت: الشيطان جلاب للشر جلاب لنار حامية صفراء تشتعل هنا وتنطفيء هناك وليس لذهب أصفر فهو خير وبركة.

وما ان فتحت باب بيتي حتر تدفقوا لى داخله دون استئذان تهافتوا يبحثون عن العربة الذهبية فلم يروا شيئا مما اعتقدوا، قلت: أرأيتم لا أثر لعربة ذهبية.

قالوا: هل تظننا أغبياء انك لن تدعها هكذا لا بد أنك صهرتها سبائك ذهبية وحولتها سيولة نقدية وراحة ونعيما.

هل تظننا نبحث عن عربة؟ نحن الآن لا نبحث عن عربة، نحن نبحث عن نقود تعطينا منها وطلبات تلبيها لنا.

قلت: أنا مثلكم وليس عندي أكثر مما عندكم.

في تلك الليلة لم يغادروا المكان، واسهروني معهم.. البعض ذهب ليعود في الصباح الباكر، ومنهم من بقي أمام داري لعله ينال شيئا مما نالني، وبعضهم كانوا يتحايلون علي خلسة لاخبارهم.. فأنا كما اعتبروا شاهد اليقين المؤهل لاعطائهم الحقيقة فتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم، وحين أنفي يزداد

تعلقهم بي، حتى صرت قبلة لذوي الحاجة من كل حدب وصوب.

فرادى وجماعات أتوا ومن كان بعيدا اتصل بي هاتفيا، ومنخهم من بعث رسالة بالتليغراف أو الفاكس أو الانترنت.

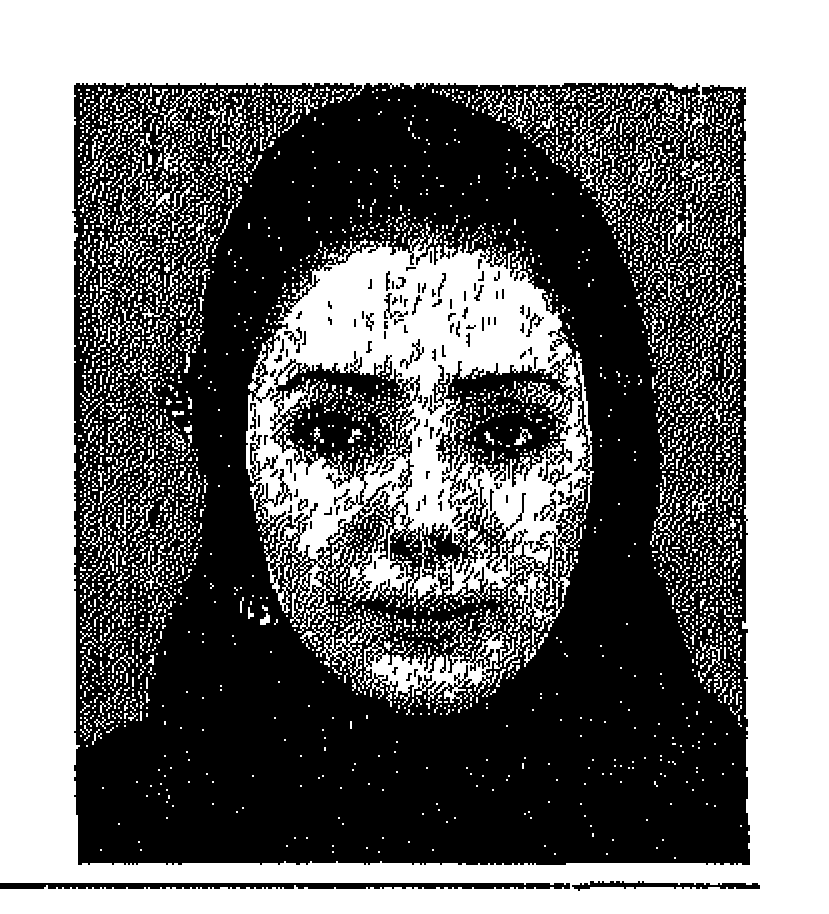
ظهر عدة أشخاص لم أرهم في حياتي وكلهم أكدوا بأنهم يعرفونني وهناك من قالوا بأنهم التقوا بي في المسجد ومنهم من ادعى بأنه تعلم معي في بعض المراحل ا لدراسية والجار التاسع والعشرون بعد الألف كان حاضرا أيضا ومنهم من اصطحب أهله معه، والجميع كانت نظراتهم تشع اعجابا بي.

إذا مشيت وسعوا وإذا تحدثت صمتوا، وإذا عبست تجهموا واذا ضحكت انفرجت أساريرهم وقهقهوا.

وعند صفائي تأتي الطلبات، منهم من يريد أن يستدين مني إلى حين ميسرة لبناء منزل؛ لأنه لا يريد أن الاقتراض من البنك ومنهم من يريدني أن أساهم في دفع مصاريف زواجه ولو أتكفل بالمصاريف كلها سيقدم لي الشكر الجزيل كله.

ومنهم منيريد أن يفتح أول مشروع تجاري له ويريد أن أدخل شريكا معه هو بالخبرة وأنا بالمال، وهناك من يطلب أن أساعده ليتم توظيفه أو توظيف أحد أقاربه أو أسهل له بعض معاملاته العاجلة.

وكل هذا بسبب العربة الذهبية التي حولتها إلى سبائك ذهبية وأوراق نقدية وعلو مطاع مستجاب التوصيات. وجميعهم يصرون على أنني لدي عربة ذهبية ويؤكدون ويحلفون، ولكما حاولت أو أوضح لا يصدقون وما زالوا إلى داري يقصدون.



بدرية الإسماعيلي

من الأسماء الجديدة في القصة القصيرة العمانية

ذاكرة

البائع الضخم، استند على الحائط، مستظلا بشجرة البيذام، التي تسلقت أوراقها الزاهية سور المنزل، ناشرة بهجتها على المارة الذين يذعنون لسحرها بمزيد من النظر. تحلقت نساء القرية بسرعة البرق حول البائع وبضاعته التي حملها في "بيكب" أحمر اللون، بعد أن تعودن حضوره نهاية كل شهر، محملا بأكواب وفناجين، وصحون زجاجية، وأخرى مصنوعة من البلاستيك ، وكل ما يلزمهن من أغراض، تتسع لرفوف مطابخهن .

كان صاحب الجدار يحمل هم قدومه ، متعللا بالبصاق الذي يملأ به مدخل المنزل ، وهو يخفي في الواقع غيظه من النساء اللاتي ينهين تبضعهن ، بقهوة مع زوجته التي حذرها مرارا من استضافتهن، وهي في سرها تكتم فرحتها بقدومهن، محملات بحكايات قد تفوتها خلال الشهر. لم يجد صاحب المنزل مخرجا ، بعد أن أعيته الحيل سوى قطع أغصان البيذامة، ليقطع على البائع مصدر الظل الذي يتكوء عليه. مع نهاية الشهر التالي، كان البائع، وبضاعته، والنسوة، تظللهم مظلة مصنوعة من قماش بلاستيكي .

لم يبقى منها، سوى الحلقة الذهبية التي كانت تحتل مساحة واسعة من أنفها. ظلت تسد مجرى الفلج، عصر كل يوم خميس، بجسمها الأسود الكبير، وحفيداتها يتراقصن حولها يملأن "المجازة" صخبا، بأجسادهن الصغيرة. تلصلصنا عليها كثيرا، حتى اختفت في مساء داكن. مشينا في جنازتها جنبا إلى جنب مع حفيداتها وهن يبكين "حبوه" التي لن ترافقهن، مرة أخرى إلى موعد الحمام الأسبوعي في "المجازة".

نزل بحماره من السماء كنبي ضائع عن قومه، بلهجته الغريبه التي أاكتشف لاحقا أنها "البلوشية "، ليلقب بـ"حمد البلشي" باقي عمره الذي قضاه متنقلا بين طرقات القرية محملا حماره الرمادي، ببضاعة من ملابس تفوح منها رائحة الحمار العفنة المختلطة برطوبة مزمنة. ذكر كثيرا عن عائلته في البلاد البعيدة ولكن لم ير أحدا أي منهم، ظل وحيدا مع حماره، ولهجته المتكسرة

التي أضفت إلى غربته غربة مضاعفة. انتهى بعدها بزمن، لم يبق منه سوى صوره مكبرة له مع حماره على الباب الزجاجي لمحل التصوير الوحيد في الولاية ملصقة جنبا إلى جنب مع صور اطفال هنود تتوسط جبهاتهم نقاط حمراء.

يجوب منازل القرية بحثا عن صدقة من أهل الخير، فعائلته منحدرة من "مجتمع الزطوط" كما عرفت لاحقا في إحدى مقررات الجامعة. وجد صاحبنا حجة قوية لتكثيف طلعاته الشهرية، بعد أن كسرت يده، ليجمع كمية أكبر من أكياس الأرز، واللحم، والمال إذا توفر.. لم يره أحد في السنوات اللاحقة إلا بيده المربوطة، مرفوعة إلى عنقه بقماش أبيض. محققا رقما قياسيا بكسره الذي بقي مستعصيا على الشفاء.



حمود بن حمد الشكيلي

كاتب قصة وأصدر ثلاث مجاميع قصصية وأخرى تحت الطبع بعنوان "النهائيات ليست مفتوحة".

في السوق القديم

روى الكثيرون لأذني عمّا حدث للرجل الذي قتَلَ في سوق القرية أخ زوجته.

بين رواية وأخرى تُحَرّف حكاية الواقع، تغور شخصيات الصراع المندثرة في غياهب الموت، ومعها تدخل الأحْداث في ضباب لا يتضح كثيرا مع شروق شمس تنضوي في السنين المعينة لنسيان ما وقع في القرية.

روى الكثيرون لأذني عمّا حدث للرجل الذي قَتَلَ في سوق القرية أخ زوجته. بين رواية وأخرى تُحَرَّف حكاية الواقع، تغور شخصيات الصراع المندثرة في غياهب الموت، ومعها تدخل الأحداث في ضباب لا يتضح كثيرا مع شروق شمس تنضوي في السنين المعينة لنسيان ما وقع في القرية.

نصف قرن، أو زد عليه عقدا، أو عقدي زمن، أو قل أقل قليلا، كل تلك السنين كفيلة بتزوير خبر الحكاية. في أكثر من ربع قرن من تلك السنين لم أدوِّن فيها حكاية الخنجر الذي غاص في كُرش رجل قاعد أمام بدويٍّ قادم من مكان مجهول لبيع صخور الملح، لذا في هذا اليوم لا وجود لمبرر يدعني أهرب مما هو مشوه في الدماغ.

أستدعي الحكاية من الموت، كل الرجال المشاركين فيها ميتون، عدا المرأة التي كانت سببا فيما حدث باقية حتى لحظات الشروع في تدوين ما يجب تدوينه؛ مخافة غياب الشهود، رغم أن الباقين شيوخ وعجائز أستقي ما تأتي به ذاكرتهم الهشة ما أستقيه، مفرزا ما تأتي به ألسنتهم، ناخلا منها ما أتذكره مما رواه لي أبي أو أحد عمومتي..

إني متكفل بنقل فكرة حقيقية في واقع سوق القرية، أزور فيها ما أزوره، مُجمِّلا الواقع بالكتابة لصالح الفن؛ وهذا الأخير يعين على دعم الناس لقلمي؛ مؤكدين في حال أن اشتكى أحد أحفاد هؤلاء الأموات أنه يكتب للبقاء؛ وليس لضوء في تلفاز ملون أو لصوت مهزوز في الإذاعة.

كان الشجار قد حدث بين المرأة وزوجها[1]، ما أن التقى الرجل بالمرأة قالت له إن أخي رافض عودتنا معا[2]. قال لماذا؟ ما دخله، وما حجته؟

لم يشف الصمت غليل صدره، فأردف قائلا -بعد وحشة الصمت التي أرخت

1 في روايتين سمعت أن الرجل لم يكن زوج المرأة، وإنما حبيبها، وقد كانا على نية أن يصيرا زوجين...

2 ثلاث روايات أو أربع كان فيهما أن الرجل والمرأة متزوجان، لكن خلافا حدث بينهما، وكان أن انفصلا عن بعض، لذا فإنه يأمل عودتها له...

سدولها في تلك الظلمة- "لا تقلقي، لا شيء يمنعني عنك غير الموت..".

مر الناس على الرجل وهو يسنُّ خنجره، قضى يومه متباهيا بها، كان يقول كلما سألوه عن سبب تمسكه به "ياما عين ستبكي دونها[3]".

في طريقه للسوق أوقفه الشيخ تحت الصباح[4]، طالبا منه أن يقبل عن الخنجر عابية[5]. رفض الرجل فدخل السوق، تجوّل أمام الباعة، بدأت عيناه تبحث عن أحد لم يره حتى اللحظة، وقف جنب رجال أمامهم أعواد ذرة خضراء، ظلت عينه اليمنى ترقب رجلا آخر، أخذ الأخير أعواد ذرة من الباعة. ظلت عين تقتفي رائحته في المكان، فانتقل لزاوية أخرى من السوق، هناك يفترش بدوي خوصا يجلس عليه، مقسما الملح لأكداس صغيرة، كل قسم بربع قرش.

جاءه الرجل وتحدثا معا، وقف بعد أن جمع صخور الملح في مقدمة دشداشته التي رفعها قليلا، انغرست في كرشه الخنجر، خر صريعا، لعلعت الأسلحة النارية في الهواء، أمسكوا بالقاتل، سريعا بدأ الآخرون يخيطون كرش الرجل المغدور، وكان القاتل قد رُبِط حول دائرة الحصن الذي على الزاوية الغربية من السوق.

لم يكمل الرجال خياطة كرش الرجل فشعروا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة، أبدلت قطع الملح بياضها، أُبعِدَتْ عن الرجل الذي فغر فمه، ظلت عيناه تصعدان الدرج المؤدي لغرفة طينية يقطنها أخوه، مؤذن القرية.

كما لو أن العينين تطلبان من الأخ القصاص.

مر الشيخ على الرجل المقيد بحبل حول الحصن، ذكَّره بما قاله أثناء لقائهما عند قوس الصّباح.

طلب أهل القرية تطبيق ما أراده المؤذن بعد أن فرغ من حديثه الذي قاله في

3 ثمة عيون ستبكي لما ستحدثه هذه الخنجر..

4 مدخل السوق، مبني بطين، ومسند بعمودين من طين.

5 أرض مزروعة

السوق قبل أن يرفع آذان الظهر، من ظل في القرية حتى ارتفاع شمس النهار إلى ما قبل نهاية جدران الطين المحيطة بالسوق شهد القصاص الذي رفض تطبيقه الأخ الأكبر، قائلا «حشا عن أقتل أي إنسان، أخشى من قتل العقرب، فكيف بقتل إنسان..؟".

أما أصغر أخوة القتيل استأذن الحاضرين في حال أن سمحوا له سيقتص لأخيه، بارك الحاضرون نيته في تطبيق شرع الله، أعطي ثلاث رصاصات وبندقية من نوع كند سويدي الصنع، أخرجها شيخ القرية من مجلسه.

قالوا لك ثلاث محاولات، إن لم تأت عليه فإنه في حل منا ومنكم، كأن القتل لم يحدث أبدا، نصبح أخوة، الله مولانا ومحمد نبينا، والإمام سيدنا، والسوق ملتقانا الدائم.

طلب منه أن يوافق على الشروط، أكّد موافقته بقوله تم ثلاث مرات، وقال الله أكبر،فانسكبت دمعة خفيفة على خده وهو يرى الذباب يطن على أصابع قدمي أخيه الممدد تحت عريش في السوق.

فُكَّ الحبل عن القاتل، طلب أن يؤدي الصلاة، أتي له بماء، توضأ وصلى تحت العريش، ما أن سلَّم فتح الجسد المسجى، التقت عيون الرجلين، قبَّل قتيله في رأسه، أُخِذ إلى مكان غير بعيد عن السوق، أبْعِدَ الصبيةُ عن حضور القصاص، بدأ الأخ الأصغر سنا في إدخال رصاصاته في البندقية.

في المرة الأولى أخطأته الرصاصة، لم يُكبِّر الناس لحظتها، عاتبت نظرات الحاضرين الرامي، تأفف الحاضرون، ثم غاصت الطلقة الثانية في أحد جدران الطين، خلفت حفرة شاهدة على نية تطبيق الشرع، انزعج الحاضرون فغادروا المكان. إلا أن القصاص أتى في الطلقة الأخيرة فأردته صريعا، لكن من بقي هناك أقسم إن الرجل المقتول بالخنجر هو مطلق آخر رصاصة على رأس قاتله.



حنان المنذري

من الأسماء الجديدة في القصة القصيرة العمانية.. أصدرت مجموعة "ستائر مسدلة" قبل عامين

ماء

كنا خمسة، امرأتين وثلاثة رجال، نستقل سيارة أجرة قديمة يملكها خالي ونتجه إلى هناك, قالت واللدتي المحشورة في وسط المقعد الخلفي الضيق بيني وبين والدي:

- هو رجل مبارك .. شفى جارتنا أم درمان من مرض القلب!

تنحنح خالي الذي تولّى القيادة وعقب مستدركاً:

- لله الشفاء من قبل ومن بعد، ما هو إلا وسيلة سخّرها الله لخدمة الناس والله هو الشافي.

التقط عمي الجالس إلى يمين السائق دفة الحوار مسترسلًا:

- يقولون إنها لم تحتج إلا إلى ثلاث جلسات على يديه في حين أن الطبيب صاحب الشهادات والخبرة كان قد أسر لها بأنها ستحتاج للخضوع إلى عملية عاجلة لرتق ثقب في القلب!

حانت من أبي نحوي التفاته أعقبها سؤال:

- وأنت .. لا أرى شيئًا من علامات المرض باديةً عليك .. فلم صحبتنا في هذه الرحلة وتركت زوجك في يوم عطلتكما الأسبوعية؟.

توقعت سؤالًا كهذا وأعددت له الجواب مسبقًا، أسندت رأسي إلى الخلف، ثم قلت بنبرة كسوتها بالضيق:

- من حق المريض ألا يبوح بمرضه إلا لمعالجه، كما أني قد استأذنت زوجي في مرافقتكم فأذن لي!

ارتسمت ابتسامه آملة على وجه خالي، قال وهو يلف المقود متجاوزًا سيارة تمشي الهوينى أمامه: الحمد لله، الجميع سيحظى بالعلاج على يد هذا المبارك!

بعد ثلاث ساعات توقفت السيارة أمام بيت المعالج، نزل أصحاب المراجعات السابقة بتثاقل، أمّا أنا وأمي صاحبتا الزيارة الأولى فقد نزلنا بلهفة اضاءت قسمات ملامحنا المرهقة. كنت طوال الطريق أحصي عدد أمراضي والخيبات التي سأدلقها دفعةً واحدة أمام المعالج حالما التقيه، وجدتها ثلاثة أمراض وعشرين خيبة!.

الباب مفتوحٌ على مصراعيه في وجه كل قادم، على الحائط الذي يلي

الباب الخارجي مباشرة, عُلِّقت لوحة عليها سهم يشير إلى غرفة في العلية كتب في أسفلها «غرفة انتظار النساء»، يقابلها لوحة أخرى سهمها يشير إلى جهة اليسار كتب تحتها «غرفة انتظار الرجال» ولوحة أخرى أعلى قليلًا منها كتب عليها «دورات المياه».

تفرقنا كل حسب جنسه، سحبتُ يد أمي وأخذت أجرجرها من شدة اللهفة عبر الدرج إلى غرفة انتظار النساء، تنهدت أمي بارتياح حين اكتشفت أننا أول الواصلين; فلقد أمّلت نفسها في أن ننتهي من جلسات العلاج باكرًا قبل أن يغص المكان بالمراجعين.

جلسنا على حصير تآكلت أطرافه، طلع علينا طفل صغير وضيء الوجه، وأخبرنا بأن أباه قد خرج مبكرًا لقضاء بعض الالتزامات لكنه سيعود بعد دقائق، سألنا إن كنا نرغب في شرب بعض الماء فأجبناه بالنفي وشكرنا له لطفه.

اضطررنا للانتظار لما يقرب من ثلاث ساعات، أمضيناها في تجاذب الأحاديث عن الجيران وأحوالهم لحين وصول المعالج في وقت كان فيه صوت القارئ يصدح تاليًا بعذوبة سورًا من آيات الذكر الحكيم صادرًا من جهاز مسجل عتيق وُضع على طاولة في وسط الغرفة. بعد طول انتظار عاد الطفل ليخبرنا بعودة أبيه الذي سيقوم بمعالجة رجالنا أولًا.. بعد دقيقة وبالغرفة التي خرج منها الطفل، سمعتُ صوت والدي يتحدث بإسهاب، غير أني لم أتبين ما يقول, سرى إلى سمعي صوت صرير الباب الثاني لغرفة المعالجة وهو يُفتح ويغلق، ثم انبعث إلينا بوضوح صوتا العم والخال. اللذين جاءا ليراجعا في مرض جدتي.

في تلك الأثناء دخلت إلى الغرفة امرأتان ثم أتت ثالثة تحمل طفلها

الرضيع في حضنها. ارتأيت أن أكسر رتابة الوقت مجددًا بالحديث، أجلت ناظري في وجوه الزائرات واخترت أن أستهل حواري مع الأم، قلت:

- أخبريني يا أختي، كم عمر طفلك هذا ؟

أجابت:

- هو في الشهر الرابع.

أردفت أسألها:

- أهي زيارتك الأولى لمنزل هذا المبارك؟

ردّت وأناملها تداعب شفتي رضيعها وتناغيه:

- بل هي زيارتي الخامسة والعشرون، فما أن يمرض أحد في البيت حتى نسارع بإحضاره ليعاينه هذا الرجل الصالح.

تنهّدتْ بحسرة ثم أردفت:

- قبل مدة، كان يقطن في هذه القرية معالج أشد منه حنكةً وصلاحًا، لا يستغرق علاجك على يديه سوى ساعة تخرجين بعدها وكأن لم يمسسك سوء طوال حياتك، يخبرك قبل أن تكلميه عن اسمك واسم والدتك ومن أين جئت ومن هم أعداؤك وكيف ستمضي حياتك وعن ضروب الحظ والخيبة في مستقبلك وحاضر أيامك. كنا يا أختي لا نحمل همًّا لأي شيء يصيبنا لأننا نعلم أن هناك رجلًا عظيمًا يقف إلى جوارنا ويمدّ إلينا يد العون وقت الحاجة.. فكان الناس يفدون إليه زرافات من كل فجّ عميق، وهم متيقنون بنيل الشفاء على يديه المباركتين.

أطرقَت وأردفت بحزن:

- لا تدوم النعم طويلًا يا أختي فلقد حدث ما لم يكن بالحسبان..

رفعت رأسها ثانية واسترسلت بانفعال:

- حين قررت اللعينة زوجته بأن تودي بحياته!

سألتها بدهشة:

- وكيف ذلك؟

ردت:

- دست له السم في الدسم فمات في فجر يوم كئيب بعد أن صلى صلاة الفجر وبعدما تناول وجبة إفطاره الأخيرة!

سكتت قليلًا ثم أردفت بغضب:

- تلك اللعينة وبيديها الآثمتين!

تنهدت بعمق ثم لاحت في عينيها نظرة انكسار وأكملت:

- لقد كانت واسعة الحيلة، دبّرت خطتها بإحكام فنجت من قبضة الشرطة!

"خسارة" عَقبتُ وأنا أنقش السجادة التي أجلس فوقها بقشة وجدتها أمامي.. خسارة!! مات أمل أحييته في داخلي حين أخبرتني عنه وعن كراماته. ربتت أمي على كتفي بإشفاق قائلةً:

- أبعد الله عنك الهم يا صغيرتي، ليتني أعرف ما بك.

استدركتْ وأردفتْ وبريقُ أمل يضيء في عينيها:

- لا عليكِ فهذا معالج جيد وسيتكفل بعلاجك من كل سوء بإذن الله.. أراح الله قلبك يا صغيرتي!.

من دواعي الأدب أن تعالج الوالدة أولًا, دخلنا بعد قلق الانتظار إلى غرفة المعالج، وجدته رجلًا أمردَ كما وصفه خالي .. قال إن شعرة واحدة لم تنبت له حتى بعد أن بلغ مبلغ الرجال!

ظلت أمي تشكو أمراضها لنصف ساعة في حين أخذت أتابع أقوالها على ورقة سجلتُ فيها سلفًا كل أمراضها لكي أذكرها بأي مرض قد تنسى الحديث عنه, في

نهاية الجلسة أعطى المعالج أمي خمس قنينات بداخلها مياه صفراء، أخبرها بأنه ينبغي عليها الشرب من كل القناني خمس مرات يوميًا لأن ماءها مبارك. سكب بعض الماء في كوب من البلاستيك وأمرها أن تشربه كله وأمامه. شربته أمي دفعة واحدة فكادت أن تغص, سجل المعالج أمراضها بدقة على ورقة كتب في أعلاها (المريضة رقم 1123).

ها قد حان دوري، طلبت من أمي الانصراف لأتمكن من شرح أمراضي لمعالجي بأريحية وبلا حرج. استجابت أمي وانسلّت بخفة من على الكرسي إلى الخارج، مشيت خلفها محكمة إغلاق الباب قائلة لنفسي إنه لا ضير في خلوتي بالمعالج فهو رجل صالح تظهرعلى محيّاه علامات الورع والتقوى كما أنه من شأن ترك الباب مفتوحًا سماع بقية المراجعين لحديثي وأنا لا أود ذلك!.

حين استدرتُ ناحيته تأملت وجهه قليلًا فارتسمت على محيّاه علامات الخجل، جلستُ في الكرسي الذي كانت تجلس عليه أمي وطفقت أشرح له أمراضي العضوية. حين انتهيت أخبرني بأني سأحتاج إلى أن أزوره عدة مرات حتى أنال الشفاء المضمون. شجعني ذلك على أن أحكي له عن معضلتي الأساسية.

قلت وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه:

- أنا يا سيدي متزوجة منذ سبعة أعوام ولم أرزق بأي طفل كما أني بدأت أشعر أن زوجي لم يعد يحبني كما كان في السابق.

ساد الصمت بيننا لبرهة إلى أن رفعت رأسي ونظرت إليه فوجدته يرمقني بنظرة متفحصة قال بعدها:

- عقيم, وخائفة من الهجر؟

أطرقت رأسي خجلًا وضربت كفًا بكف كتلميذ يعلن فشله .. قلت بصوت خفيض:

- شيء من هذا القبيل!

رد مبتسمًا:

- خيرًا إن شاء الله، سترزقين بطفل إن التزمت بشرب الأدوية التي سأعطيك إياها!.

كانت الأدوية معدة سلفًا ومكدّسة تحت قدميه، استلمت أدويتي عن كل عدة أمراض قنينة من المياه الصفراء، أمرني أن أشرب بعد كل أذان كوبًا على ما هو مدوّن في ظهر كل قنينة. صبّ لي بعض الماء في كوب من البلاستيك وطلب مني أن أشرب منه فشربت منه القليل غير أن الماء كان مشبعًا فلم أستطع مواصلة شربه، نادينا أمي من الخارج لكي تكمل الشرب عني، لأن المعالج قال إن إراقة هذا الماء لا تجوز.

انتهت جلسة المعالجة، خرجنا كُلٌّ يحمل كيسًا أسود بداخله خمس قنينات بلاستيكية، وقد قام كل واحد فينا بنقد المعالج خمسة ريالات، على أساس ريال واحد لكل قنينة.

- احترنا كيف نضع جميع الأدوية في صندوق السيارة دون أن نخلط بينها فيأخذ أحدنا دواء غيره.. حللنا الإشكال بأن يحفظ كل واحد الزاوية التي وضع فيها دواءه .. ركبنا سيارة خالي الأجرة وعدنا إلى القرية !.

اليوم أنا في مسقط حيث أسكن، صحوت مع أذان الفجر، أعطيت أمي التي باتت في ضيافتي دواءها ومن ثم تناولت من دوائي حسب الإرشادات المدوّنة على ظهر القنينة، حين شربت من الدواء أحسست بأمعائي تتقطع ورغبت بتفريغ ما بمعدتي .. قالت أمي:

- تحملي حتى تعتاد معدتك على ثقل الدواء!.

بعد أذان الظهر, صببت لأمي دواءها ومن ثم شربت دوائي. قالت أمي بارتياح وهي تمسح على بطنها:

- أشعر أن الدواء أخفّ على معدتي منه عند الفجر.

نظرت إلى كوبي، كان هناك بعض الماء ما يزال في قاع الكوب. بدا لي أن هناك أشياء تشبه خيوطًا شبه شفافة تسبح في المياه الصفراء... توكلت على الله وشربت.

لثلاثة أيام ظللت اكترع الماء أصفر اللون, في اليوم الرابع لم أحتمل.. سقطت على وجهي في غرفة مكتبي .. شعرت بأحشائي تتمزق .. عدت في ظهيرة اليوم إلى أمي وزوجي باكية، شكوت لهما الحال، فنصحني زوجي بأن أصبر لأحقق أمنيتنا الغالية في إنجاب الأطفال, صارحتهما بأني لم أعد أقوى على الصبر, فأمرتني أمي أن أفوِّض أمري إلى الله, ثم اقترحت بأن نسأل المعالج في يوم الجمعة القادم عن دواء آخر يشفي أمراضنا شريطة أن يكون دهانًا لا شرابًا فقد بدأت تشعر هي أيضًا بأن قواها قد بدأت تخور!

يوم الخميس اجتمعنا خمستنا في منزل جدتي بالقرية وأحطنا بسريرها الذي تمددت عليه, أخرج خالي ورقة بيضاء طبع عليها المعالج أسماء الأمراض التي يقدر على معالجتها.. لم يترك مرضًا إلا وسُجل ضمن القائمة، من بين الأمراض التي تضمنتها الورقة: السرطان، الصدفية، الغدة الدرقية، السكر، الضغط، السل..

سُجِّلت في القائمة أيضًا كثيرًا من العقد والمؤرقات التي قد تعترض حياة البشر ويمكن للمعالج حلها بسهولة والقضاء عليها نهائيًا كالضيق وانقطاع المحبة بين الناس وعدم التوفيق بين المرء وزوجه، الهيجان وسرعة الغضب،

الصلع وعدم إنبات الشعر!.

أثارت العقدة الأخيرة حفيظتي، نظرت إلى خالي وقلت بخيبة:

- يا خال! لقد يئست!.

رفع رأسه ونظر إليّ معاتبًا وقال:

- أتيأسين وأنت ما زلت في بداية المشوار؟!.

سألت في حيرة:

- ولكن كيف أنه لم يعالج نفسه من المرد حتى الآن؟

باغته قولي فضحك وأجاب:

- لعله ليس من محبي الشعر! .. ثم ما علاقة هذا الأمر بمرضك؟!

أجبته والحزن يغمرني:

- بعدما سمعتك تقرأ هذه الورقة, تذكرت بأنه أمرد!.

أطرقت رأسي وأضفت:

- أفكر الآن في أنه لو كان باستطاعته أن يُفيد أحدًا لأفاد نفسه وأنبت في رأسه أو ذقنه أو حاجبيه الشعر!

رد مجادلًا:

- قلت لك لعله ليس من محبي الشعر!.

رفعت جدتي إلينا يدها بينما عيناها ظلتا مسبلتين, نطقت بصوت واهن:

- أظنُ .. أظنُ أن لا فائدة من كل هذا العناء..

صمتت قليلًا ثم أردفت ببؤس:

- أنظروا كيف تدهورت صحتي رغم أني أشرب بانتظام من الماء الذي أعطانيه إياه !!

حكّ خالي جبينه ثم سأل:

- أتعنين بأننا قد خُدعنا؟

أمسكت أمي بطرف الحديث وقالت بانكسار:

- بعد تجربتي مع هذا الماء أظن أن الإجابة ستكون نعم!! ..

فكرت قليلًا ثم أكملت:

- سأقصد المستشفى من صباح الغد..

نظرت إليَّ فقلت بحماس:

- سآتي معك.

أطرق خالي قليلًا يفكر ثم رفع رأسه وقال:

- إذاً سآتي ووالدتي معكما.

أردف كمن يستدرك شيئًا نسيه:

- لكن ماذا ترانا سنفعل بقناني المياه المكدسة في خزائن ملابسنا وعلى أرفف المطابخ والثلاجات؟!.

هنا, رفعنا رؤوسنا فالتقت أعيننا جميعًا وبدا السؤال يكبر فينا ويصبح بحجم كل تلك الخيبات:

- حقًا ترى، ماذا نفعل بكل هذا الماء؟!.



يونس الأخزمي

روائي وكاتب قصة له: "النذير" عام 1992 و"حبس النورس" عام 1996 و"حمّى آيار" عام 1999 و"نقوش" عام 2006 وفي الرواية: "الصوت" عام 2012

يوم صمت في مطرح

جفلت هذا الصباح على حلم غريب، حيث وجدت جيوبي خاوية وملابسي رثة ممزقة وأنا أتسمر على رصيف شارع "كورنيش مطرح" المزدحم بالمارة، أمد يدي بذل علّ يد سخية تعطف علي، وحين التفت يمينا وشمالا وجدت الرصيف وقد تحول الى صف متسولين يمتد الى اللانهاية. ضحكت وأنا أرتدي ملابسي هاما بالخروج باتجاه سوق السمك الذي أحبه.

"متسول ؟"!!!

الجمعة، حيث تكتظ الممرات الضيقة في الأسواق وعلى ضفاف شاطىء مطرح، وأمام المحلات في الشوارع الرئيسية،كانت بوابة "المثاعيب" المرممة حديثا المواجهة لبيتي أول ما يطالعني كل صباح. تقف هكذا منذ زمن بعيد، وقد تحولت مع الأيام الى بقايا ذكرى لطفل مجنون وسخ الملابس يحمل في حزامه الذي اشتراه له أبوه في العيد الماضي مسدسا بلاستيكيا صغيرا، يتصيد به أصدقاءه الذين يصرخون بأعلى صوت "الله أكبر" بينما يحشر هو جسده الضئيل داخل صندوق القمامة العمومي الكائن أسفل البوابة،حيث لا يخطر للأطفال النظاف الاقتراب منه، ويبقى هو هناك حتى ينتهي رصاص المسدسات الأخرى، فيخرج هو متوحشا غادرا مبيدا الكل، أو يختبىء في البرج الصغير الواقع أعلى البوابة حيث حذر الأباء ابناءهم منذ زمن من مغبة الولوج الى داخله خشية الجن والسحرة التي تسكنه منذ الأزل، حيث تجرأت شابة جميلة (يقال إنها كانت أجمل فتاة في مطرح) الى الدخول هناك خوفا من عقاب أبيها بعد أن راها تحادث شابا قدام باب البيت، ولم تخرج من البرج منذ حينها، وحيث كان يلمح هو بقايا علب لأسماك التونة وزجاجات عطر كبيرة كلما أطل على البرج من خارج الباب فاعتقد أيامها بأن ما يرده هو طعام وشراب الجن المفضل. يبقى في البرج مرتعشا خائفا من شيء لم يظهر له بعد، مسلحا نفسه بشجاعة غريبة لم يترب عليها حتى تنتهي ذخيرة الأطفال الآخرين. الصبح شديد البرودة مع بداية شهر شباط، والأرض رطبة. وما أن عبرت البوابة حتى لفت انتباهي حالة الصمت اللاطبيعية. كانت المحلات التي

اعتادت فتح أبوابها مع صلاة الفجر مغلقة. "المخبز اللبناني" لا تنبعث منا رائحة رغيف كالعادة، ودكان الحاج علي بائع المرطبات وعصير البرتقال الطازج والخضراوات بدا ساكنا هامدا. مصطبة العجوز "مياء" بائعة الحمص والفول خالية، حيث اعتدت على شرب شاي الحليب الساخن وتناول رغيف مملوء بالفول تارة وبالجبن تارة أخرى قبل توجهي للعمل كل صباح، وكانت العجوز كثيرا ما تستغل تلك الفترات في الحديث عن ابنتها التي ساعدتها في إعداد قدور الحمص والفول والتي تقوم عادة بغسل الأطباق والملابس وتنظيف البيت الصغير. كانت العجوز قلما تأخذ مني نقودا مقابل ما أتناوله من طعام، حتى تلك المصطبة بدت جافة يابسة، وحتى سيارات الأجرة التي يملكها خلفان وسالم وسعيد والتي عادة ما أسمع شحير محركاتها على امتداد الطرقات، بقيت هي الأخرى صامتة.

وحين توقفت لبرهة من الوقت أمام بيت العجوز مياء الطيني المسقوف بسعف النخيل اليابس، وطرقت الباب المتداعي، لم تجب، فأيقنت بأن ثمة سرا غريبا يشمل المكان، وانني ربما أخطأت حين لم استمع للإذاعة ليلة الأمس أو حتى هذا الصباح، وشتمت نفسي على الوقت الطويل الذي أهدرته سدي في محاولة فاشلة لتهذيب قصيدة رثاء لوالد صديقي الذي نفق في نزوى قبل ليال هاما بإرسالها للجريدة صبيحة الغد.

منذ يومين أو أكثر، حيث بدأت إجازتي السنوية وحيث قررت السفر باتجاه الشرق القريب بعد اسبوع، تسمرت قدام جهاز التلفزيون الذي يبث قنوات فضائية جميلة، وكنت قد اعتدت مع صبيحة كل جمعة، على حلاقة ذقني والتوغل في الأسواق حيث يروق لي كثيرا مشاهدة الباعة والتجار

والزبائن ووجوه النساء المتزاحمات على المحلات، قبل أن أصل لسوق السمك.

هذا الصباح تبدو الأشياء غريبة جدا، البيوت هادئة، السكك صامتة، المحلات جافة ميتة، حتى صياح الديكة الذي كثيرا ما نرفزني مع كل فجر جديد، اختفى اليوم تماما. وترددت وأنا أهم بالعودة الى بيتي في البداية، لكنني، وباعتقاد جازم، شحذت همتي ومضيت، فاليوم يأتي بعد ليلة خميس باردة جدا وربما فضل الجميع النوم. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل، وكنت كلما توغلت في السكك واستدرت ناحية المحلات المغلقة والطرقات الهادئة، كلما كبر الصمت واتسع السؤال. وحين اشتعلت أعماقي وغدت مثل لهيب يضطرم، عدت أدراجي ناحية البيت. كنت خائفا من شيء ما لا أعيه، أدرت جهاز التلفزيون، أدرت المذياع، لكنني فوجئت بصمت عميق جدا، كل الأشياء تبدو صامتة ساكنة هذا الصباح، عداي وجوفي.

لم استطع المكوث في البيت لأكثر من ساعة. حالة الصمت الغريبة جدا لم تترك لي فرصة للبقاء أكثر، ان في الأمر سرا ما، سرا غريبا جدا، فخرجت ثانية. الساعة تجاوزت الثامنة، ولا ثمة حس. ولجت سوق مطرح القديم، كانت بوابات المحلات الخشبية مغلقة يتقاطر منها صمت عميق، وكانت الممرات خاوية تماما من المارة وعربات الحمالين الخشبية، واختفت تماما جلسات المتسولين وبائعي الساعات اليدوية والصرافين ورائحة الأجساد المكتظة والمختلطة ببخور وعطر النساء الحريف. وجزمت ساعتها أن أمرا ما غير طبيعي يحصل، أو أن ما أراه مجرد حلم آخر وسأصحو منه بعد قليل.

انعطفت صوب سوق الظلام، حيث اعتدت أن أسلكه في اتجاهي نحو

سوق السمك، وحيث أشتم روائح البهارات المختلطة بروائح البخور الكثيرة وروائح الصندل ودهن العود وألمح عن قرب وجوه النساء المزدحمة أمام شرفات المحلات وأيدي الهنود والسيخ التي تتعمد ملامسة النساء في الأماكن الرخوة. كان السوق يبدو مظلما هذه المرة مثل اسمه، حتى تلك الحشرات الصغيرة التي كثيرا ما ألمحها تسحق تحت الأقدام وهي تتراكض بجموع نحو قطع السكر الملقاة، قد اختفت هي الأخرى. وتساءلت حينها: هل هو يوم صمت عالمي تكاتفت فيه سائر المخلوقات الأرضية عداي؟!!!

اتجهت بعد ذلك ناحية الكورنيش الموازي لسور اللواتيا القديم، حيث تكتنز منازلهم ما بين السور الأبيض الأمامي والجبل الشاهق في الخلف وحيث اعتدت على رؤية بشرتهم البيضاء الناعمة أمام محلاتهم أو أمام بوابة السور، وبدا كأنه هو الآخر يعيش حالة صمت، حتى تخيلته وحشا غابت عنه الحياة. حينها ارتعش قلبي، وتوجست خيفة، وجزمت بأن شيئا ما ربما حدث أو ربما سيحدث بعد قليل، وان الكل قد علم بالنبأ وانني أنا الوحيد الأحمق، الذي غفل عن سماع الإذاعة. وفاجأني وجه عجوز متغضن البشرة، اندلق فجأة من بين ألواح النافذة، كانت سيماؤه توحي بغضب ما، حدق الي بنظرته الحادة، بزق، ثم أغلق النافذة. كاد بزاقه أن يتوسط وجهي لولا أنني تنحيت عنه فسقط على نعلي. التهبت بعدها الأسئلة في رأسي، كبرت وتعاظمت، سخنت النفس وأوشكت على الانفجار. ما الذي يجري هنا؟

هيجني الصمت الجاثم مثل موت مطبق عميق فكدت أن أزعق في البيوت الهامدة، وأصرخ بحدة حبالي الصوتية كي أعقل ما يحدث.

ما مرد هذا الصمت غير العادي؟!!

ولماذا لا يوجد سواي في الشارع ؟!!

في الفجر، الفجر المملوء برطوبة البحر ورائحة الأسماك تستيقظ مطرح لزجة برطوبة مالحة يتصاعد الأذان من الجهات الأربع وتبدأ مشاوير الأقدام.

أين مطرح تلك ؟ ما الذي يجري حقا؟

ان الناس. ناس العالم كله، من الهند، من السند، من نيويورك المخيفة، ومن لندن الواسعة كلهم يأتون الى مطرح ليشتموا لساعات بسيطة رائحة الهدوء الفريد ويتسكعوا بحرية حلوة وأمان لا يجدوه أبدا في كوكب الأرض. إن أبي الذي زارني قبل ليلتين لم يفلح في محاولته الطويلة في إقناعي بالنكوص معه الى نزوى، أخبرته بأنني مسكون بمطرح، وان مطرح الحلوة في دمي. لكن مطرح تبدو غريبة علي هذا اليوم.

صبيحة الجمعة لا تجد متسعا تخطو عليه في سوق مطرح ولا فسحة تضع عليها جسدك، أنفاسك تختلط بأنفاس آخر أو أخرى، ويندلق رجل مجنون بعصاه وابتسامته الدائمة، يهش على المارة والسيارات. أين هو اليوم أيضا؟!

ما سر هذا الصمت الغريب ؟!

أين البشر؟!

أين تلك الجموع الشديدة التي تعودتها تملأ الشوارع خصوصا أيام الجمع ؟! حتى مسجد اللواتيا بقي مغلقا باردا دون العادة.

والهنود !! أين كل أولئك الذين تعودت الاصطدام بأجسادهم الطافرة بروائح حادة!!

حين وصلت الى سوق السمك، حيث تعودت على مزاحمة المشترين،

والتصبيح على وجوه الباعة والصيادين الذين حفظوا اسمي وحفظت أنا وجوههم وأسماءهم وأنواع الأسماك التي يصطادونها والأوقات التي يرمون فيها شباكهم وأنواع المراكب التي يملكونها، لأصل في النهاية الى وجه العم «ضحي» العجوز الذي اعتاد تخصيص سمكة طازجة لي. حين وصلته، ألفيته خاليا يابسا، تنبعث منه روائح عفنة، كانت المصاطب بيضاء لامعة وخالية من بقايا الأسماك والدماء الكثيرة. حينها أدركت بأنني أخطأت بخروجي هذا الصباح، وأنني عما قليل ربما سأرتطم بموت مفاجىء غير متوقع أو مصير مجهول ينحدرا باتجاه جهنم.

وتذكرت بأنني صليت هذا الصباح، والبارحة، وأنني لم أفعل سوءا سوى ملاحقة فتاة متزوجة تسكن في البناية المجاورة. وتذكرت الرسالة التي وجدتها قبل شهر أسفل الباب، وكيف اني ضحكت ساخرا غير مصدق بأنه لم يتبق على القيامة سوى أربعين ليلة.

كان شعورا بالخوف قد طغى علي وشملني حتى هطل عرقي برغم برودة الجو. شعور حاد صاخب يغلي في الداخل فيحرق بقايا تماسكي الواهن. وتسمرت مكاني مذعورا من شيء لا أفهمه، شيء ربما سيحدث بعد لحظة أو ربما سينفجر الآن، وربما اختارني ضحية دون كل البشر. وتأكدت بأن كل الذي أعددته للزواج في الشتاء القادم قد احترق، وأنني الآن أخرج من ملابسي وأطير صوب البحر أو صوب الصحراء. سيحدث ذلك لي دون كل البشر، فأنا الذي خالفت قانون الطبيعة وخرجت، في حين بقي الكل في بيوتهم حتى العجوز مياء لم تبرح دارها ولا استجابت لطرقاتي، أنا الوحيد إذن الذي خالف قانون اليوم والمكوث في المنازل، وربما خالفت أشيده

كثيرة لا أعقلها.

بقيت هكذا لفترة طويلة وأنا أحدق لزرقة السماء والبحر. حتى البحر بدا هادئا وديعا هذا الصباح. المراكب هادئة، السفن الضخمة في البعيد هادئة، ان ظاهرة غير طبيعية سوف تحدث عما قليل. وسردت على نفسي كل الاحتمالات الممكنة.

قلت: ان هدوء البحر هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، وربما إنه الطوفان، وان العالم استمع لتحذير الأرصاد الجوية فبقي الناس في بيوتهم، وانني المخبول الوحيد في مطرح الذي خرج ليستقبل حتفه بترحاب. وأمعنت النظر في السماء فكانت صافية.

قلت: إنها ربما حادثة مشابهة لتلك التي مكثنا فيها داخل حجرنا نرتجف هلعا على سماع تحذير عنيف اللهجة جازما بأن أشلاء من قمر صناعي سيسقط فوق أحد السطوح الهشة في مطرح، وانه محمل بأشعة هالكة.

قلت: أو ربما يكون المذنب الهائل الذي قرأت عنه في كتب المدرسة منذ زمن بعيد، والذي يتوقع سقوطه اليوم، وربما هذا الصباح، أو ربما هذا اللحظة، وحينها سيصطدم بالأرض بجلبة عنيفة فتندثر سائر البيوت والجبال وينطمر الخلق أجمعين.

وتذكرت الأوزون والحكايات الغريبة التي لا أصدقها، وتذكرت الإيدز، بداية انتهاء البشرية كما انتهت قبل ذلك الديناصورات. فربما اكتشفوا كما كنت ألح على زملائي في المكتب بأن الإيدز ينتشر الآن في الهواء بكثرة.

بقيت هكذا لثوان، قبل أن أقرر، وبسرعة
العودة أدراجي من حيث أتيت قبل فوات الأوان.

قلبي يرتج بشدة داخل تجويفي الصدري وأنا اجتاز الشارع الرئيسي باتجاه الشارع السفلي المقابل لسور اللواتيا. وتساءلت: هل كان أبي على علم بما سيحدث ولذا كان إصراره قويا هذه المرة؟

كانت السيارات المصطفة في كل الاتجاهات صامتة ميتة والتفت ثانية ناحية البحر في محاولة أخيرة لرؤية حياة ما فكانت مناظر السفن والمراكب توحي بحزن دفين غامق، ولا ثمة صوت لموجة يتيمة. حينها، وعلى حين غرة، داهم مسمعي صوت محرك سيارة، فتوقفت فاغرا فاهي شاخصا بعينين صامتتين، اعتقدت جازما في البداية أن ما أسمعه هو من وحي دواخلي الحالمة بهمسة صوت واحدة وسط غابة الصمت الهائلة حولي.

أصخت السمع أكثر. أجل، إنه صوت سيارة. أيقنت وقتها بأن الحياة قد بدأت تدب من جديد على الأرصفة وفي المحيط، وأن الفوضى المعتادة والأصوات المتداخلة والروائح المختلفة ستحتدم في الساحة الفارغة بعد قليل، وستكتظ الممرات والسكك والأسواق ثانية، فابتسمت لذلك الشعور المريح أخيرا، لابد أن أحدهم كان قد عبث بساعتي فخرجت مبكرا جدا.

إلا أن هذا الشعور الذي خامرني لثوان معدودات لم يلبث أن تبخر فجأة وتلبسني شعور الخوف من جديد حين خشيت من أن يكون القادم واحدا مثلي، مخبولا آخر نسي الاستماع للإذاعة فخرج يلاقي حتفه هو الآخر.

مكثت محدقا في السيارة التي بدأت تقترب حتى غدت في الجانب المواجه لي. حينها التفت الي الثلاثة الذين عجت بهم السيارة. فرمل سائقها، فانبعث من تحت العجلات صوت غليظ ودخان، ولمحت الثلاثة يترجلون، يحمل كل واحد منهم عصا غليظة مكورة الرأس. فشملتني رجفة حادة من

دقائق رأسي وحتى أخمص القدمين ووقف الدم في عروقي.

ما الذي يجري ؟!!

من هؤلاء؟!!

صاح بي أحدهم: أنت.. قف مكانك.

اعتقدت لبرهة بأنهم يلاحقون شخصا ما يحقدون عليه ويريدون هصره بعصيهم المخيفة، وانهم ربما تخيلونني ذلك الشخص. لكن، ومع دنوهم مني، ولهاجس لم أتبين حقيقته، أطلقت لساقي العنان فانطلقتا. رفعت طرف دشداشتي وضغطت عليه بين أسناني وركضت. هبطت السلم القريب والثلاثة يتدافعون خلفي مثل طوفان. كانوا هائلين بعصيهم المرعبة الغامقة، وكان صوت أحدهم حادا فظيعا: قف يا حمار، قف يا بغل، يا نذل.

انحدرت ناحية سوق الظلام وهم يتراكضون خلفي، ودقات قلبي خائفة، ونفسي يختنق تدريجيا، كنت متأكدا بأنهم لن يتوقفوا عن ملاحقتي وأن تنفسي سيخور بعد لحظات.

برحت سوق الظلام وولجت سككا ضيقة، واكتشفت وأصواتهم القميئة تبتعد تدريجيا، بأنني أملك ساقين سريعتين، وضحكت بهستيريا غريبة وأنا استحضر ما يحصل. كأنني وسط كابوس مفزع وأنها ليست مطرح هذه التي أراها اليوم والتي عشقتها منذ نعومة عقلي. وان شيئا ما عصيبا قد حصل دون أن أعلم به. كان نفسي قد بدأ في النضوب التام مع اقتراب خطواتهم وتزايد صراخهم وشتائمهم. وكنت على يقين بأنني لو وقعت بين أيديهم الآن، حتى لو لم أكن من يريدون، فإنهم لن يتركوني وشأني، بل سيمزقون جسدي كله. كانت الطرق جميعها تقودني نحو طرق جديدة، حين لاح لي صندوق قمامة

عمومي، فشددت على ساقي وقذفت بجسدي وسطه.

بقيت أشهق هواء عفنا متسارعا قبل أن أسمع اقتراب أقدامهم من المكان فخفضت تنفسي. كادت الرائحة الخانقة أن تهلكني هي الأخرى، وتساقطت بقايا رز وعظام أسماك على ملابسي وانسكب سائل على وجهي. كان قلبي ملتهبا في الداخل ويسبح جسدي في ذعر وعرق كثيف لم أعرف مثله من قبل. وكان كلما هدأ ركضهم كلما زادت لعناتهم وسبهم.

- أين هرب ابن الكلبة؟

- سأحطم هذه العصا على رأسه

- سأسود حياته النذل

- جبان .. حقير

ما الذي يجري اليوم؟ وما كل هذه الشتائم المقززة؟!! ومن هؤلاء؟!! ومن يلاحقون في الأصل؟!!

وتذكرت أحداث اليوم، والأسواق الصامتة، والسك الذابلة، والبيوت الهامدة.

لابد وأن في الأمر سرا ما.

كانت الأسئلة الحارقة تتسارع نحو ذهني. تتسابق وتتشابك في عقلي الذي يوشك على الانشطار. بقيت بعدها للحظات كاتما على نفسي بين أكوام القمامة الكثيفة دون حراك. حينها انبعثت من اللاشيء خطوات جديدة راكضة في البعيد.

فصرخ أحدهم: ذاك هو

وزعق الثاني: إنه آخر

وركضوا خلفه وهم يصرخون: قف، قف مكانك والا كسرنا عنقك، قف يا غشيم يا قليل التربية، يا زبالة.

- هناك ثالث

- يا أولاد الحرام يا...

بقيت مكاني لفترة بسيطة وأنا أصيخ السمع للخطوات التي ابتعدت وانتشرت، وبقيت الأسئلة العصيبة تحرق كل رأسي. كنت لا أزال مقتنعا في الداخل أن ما أراه هو مجرد كابوس لم ينته بعد، وأنني مازلت نائما، لم استيقظ بعد.

استقمت، وقفزت من على الصندوق. بكم ثوبي مسحت السائل الذي انسكب على وجهي ورقبتي، ونفضت ما على ملابسي من عظام وطعام، تنفست بعمق، وتلفت في الاتجاهات، كانت القمامة العمومية تقع وسط منازل قديمة متشابكة تفصل بينها سكك ضيقة، حدقت في الوجوه الشاخصة من بين فتحات النوافذ والستائر، ابتسمت وانطلقت صوب سوق السمك.



عبدالحكيم عبدالله

كاتب قصة له مجموعة قصصية بعنوان "مساس" عام 2006 وتحت الطبع "استراق"

العرض

الرجال الذين وقفوا في الشمس لمدة ساعة،شعروا بعطش شديد.

وقفوا لمشاهدة عرض قدمه ثمانية من المهرجين. العرض لم يكن مسليا، حركاتهم الاستعراضية غير مثيرة، وقد أخطأوا في أربع فقرات تقريبا. لم يقدموا عرضا جميلا. يلتمع العرق على وجوههم، وخطوط جباههم تظهر مدى إرهاقهم وضجرهم، ولم يبتسم بعضهم أثناء أداء العرض.

الجمهور من الرجال فقط، إذ أن النساء في هذه الساعة يمكثن في البيوت منشغلات بتحضير طعام الغداء، أكمامهن مبتلة وهن يغسلن السمك والخضروات في مغسلة المطبخ تحت صنبور الماء. وفي مطبخ إحداهن قطة بيضاء كثيرة الحركة، تمسح فروها الناعم في ساقي المرأة وتعترض خطواتها أثناء عملها في المطبخ. المرأة لا تغضب من القطة البيضاء رغم أنها تتعثر أحيانا بسبب اعتراض القطة لخطواتها طوال الوقت، ولم تشتم القطة أبدا. لم تكن القطة مشاغبة أو تبعثر الأواني في المطبخ أو تخلف قذارة هنا وهناك. القطة جميلة والمرأة تحبها. لا تحبها كثيرا، تحبها بمقدار يكفي بأن لا تفكر أبدا في ركلها بقدمها أثناء اعتراضها لخطواتها وهي تتحرك في المطبخ لتحضر الطعام. جميع النساء كن في البيت لتحضير الطعام لأزواجهن وأطفالهن. لم تذهب أية امرأة لمشاهدة العرض.

كان العرض سيئا، والمشاهدون من الرجال فقط، والشمس مشرقة وضوؤها باهر ولم تحضر أي امرأة لتشاهد العرض. لم يكن بين الجمهور امرأة تلبس ثوبا أزرق بثنيات متدرجة تحت الأكمام، وتضع وشاحا حول عنقها بلون زهري فاتح مع التواءات لونية تميل إلى الأصفر الباهت جدا، يكاد أن يكون أبيض. تقف مائلة، بوضع مريح للغاية، مستندة بأعلى كتفها الأيسر على جدار كوخ خشبي متداع، والخشب متفسخ من فرط القدم، وقد نخرت فيه الملوحة والعثة فصارت الجدران هشة وناعمة. مرتاحة وهي تقف هناك متكئة على جدار الكوخ المهجور تتابع حركات المهرجين. لا تشعر بالحر، إذ أن الهواء كان مفعما بالطراوة وهو ينبعث من بين الأشجار الكثيفة على طول الساحة من جهة الشمال إلى تخوم القرية الصغيرة.

انتهى العرض، فتحرك بعض الرجال الذين وقفوا في الشمس لمدة ساعة. أثناء ابتعادهم عن مكان العرض عائدين إلى بيوتهم بحثوا عن حانوت أو كشك صغير ليشتروا ماء لأنهم يشعرون بعطش شديد.

شاهدوا رجلا يبيع مأكولات خفيفة على حصيرة فرشها فوق التراب، ولديه براد فيه قناني ماء بارد.

توجهوا إليه واشتروا قناني الماء وشربوا. شعروا بالارتواء والراحة، وابتسم بعضهم استجابة لهذا الشعور.

بعد شرب الماء توقفوا قليلا في التراب وتحدثوا عن العرض الذي شاهدوه قبل قليل. تكلموا حول أمور مختلفة وضحكوا، وكان أحدهم حين يضحك يقبض بكفه على ذراع صديقه، يقبض على ذراعه بخفة دون أن يؤلمه. هكذا اعتاد أن يفعل منذ أن كان صغيرا، منذ أن كان في الصف الرابع الابتدائي حين كان يضحك وسط مجموعة من الأصدقاء، كان ينحني بجذعه إلى الأمام و يمسك ذراع أقرب صديق يقف بجانبه ثم يتقهقر إلى الوراء مفجرا قهقهات مجلجلة، ولكن دون أن يسقط على ظهره أو يجر صديقه بقوة، كان يفعل ذلك في مرح ولطف ومراعاة. (لم يتمكن من التخلص من هذه العادة رغم محاولاته، وقد حدث ذات مرة أن تعرض لموقف محرج في حصة التاريخ حين كان المعلم يشرح درسا عن الحملة الصليبية، وأخذ يسرد تفاصيل الهزيمة التي لحقت بفصائل الصليبيين عام 1244 والتي أدت إلى ترتيب الحملة الصليبية السابعة، حين قام زميله الذي يجلس بجانبه بحركة تمثيلية مضحكة مما فجر قنبلة من القهقهات في حنجرته المدوية، وحاول أن..)

تحركوا من مكانهم عائدين إلى قريتهم الصغيرة.

أثناء عودتهم لم يواجهوا أي خطر في الطريق، عدا عن مشهد بدا مرعبا بعض الشيء، إذ شاهدوا معتوها يتحرك في مساحة صغيرة فوق العشب الأخضر ويأكل بسكويتا. (من نوع البسكويت رديء الطعم الذي يقدم في المستشفيات للمرضى من كبار السن في وقت العصر مع كوب من الشاي بالحليب، أو مما يقدم في الوجبات المجانية للمتطوعين في تنظيف الشواطئ من العلب الفارغة وأكياس البلاسيتك وبقايا خيوط صنارات الصيد). لم يشعروا بالخطر، ولكن داخلهم شعور بالاضطراب قليلا حين هم المعتوه بتسديد ركلة لكرة وهمية، والكرة مصوبة نحوهم. ولأنها كرة وهمية فقد ازداد اضطرابهم وذلك لاحتمال أن تكون كرة سلة ثقيلة، فاعتراهم خوف على نظاراتهم أن تهشمها هذه الكرة الثقيلة الخادشة، رغم أن أحدا منهم لم يكن يضع نظارات على عينيه.

وصلوا إلى قريتهم دائخين من الحر والجوع، ولكن غير غاضبين. بل إن بعضهم بدا مبتهجا حين وصلوا إلى بيوت القرية وسمعوا ثغاء الأغنام وحركة الدجاجات وهي تلتقط طعامها وسط الطين والتراب.

لم يكن بينهم رجل يجيد الرسم على الزجاج.

فبراير 2009



سمير بن خليفة العريمي

كاتب قصة ومسرح من آعماله القصصية " سفر هو حتى مطلع الشمس" و"خشب الورد" عام 2010 والمسرحية "كنز سيف ابن يزن" عام 1993 ومسرحية أطفال.

الصخرة

المغيّب..

كنت ألمحه بصفة يومية تقريبا .. يجلس على تلك الصخرة البنية العتيقة ..على جرف صخري داخل كحد السيف في البحر.. عجوز هرم غيبته السنون أنهكته حتى لم يبق منه سوى جسد حي ينتظر الفناء.

عمل بائعا للخواتم والأحجار الكريمة في سوق الساحل لكنها لم تكن مهنته الأم .. تضاريس وجهه وبقايا الآثار التي خلفها عمله الأصلي كانت تشي بأنه بحار قديم ، مات أصدقاؤه وأحباؤه ولم يعقب ذرية كما يبدو.. تبدل العصر من حوله وبقي هو وحيدا يصارع وقدة الوحدة ويتأمل الأمواج التي كان يركبها ذات يوم متحديا الأهوال.

فيما سبق من السنوات كان المغيب يجد من يستمع لحكاياته عن مغامرات السفن في أعالي البحار قرب سواحل أفريقيا و"كيرالا" والعواصف والطوفان.. وقصص الغرقى والقراصنة ..وكان يردد دائما في زهو: أنا الناجي الجيد من طوفان "مصيرة" .. رأيت أحبائي يغرقون..(المحمل) كله توارى في ثوان إنها إرادة الله.. وعندما كان يحس من جلسائه الشك كان لا يتوانى عن الحلف بأغلظ الأيمان على صدقه : والله العظيم ما كذبت .. البحر عدو في ثوب صديق .

لم يعد الناس اليوم يهتمون بقصصه لم يعد لديهم وقت لعجوز مثله يسعل أكثر من سبعين مرة في الدقيقة ..تركوه .. انصرفوا عنه ..ففضّل الاختلاء بهموم شيخوخته على هذه الصخرة ، يأوي إليها فيقعد ناظرا صوب البحر وأمواجه .. وطيور النورس تحيط به وكأنها تبادله الحديث.. أتراه يشتكي إليها ما أصبح يلاقيه منا من إعراض؟..أتراه يحسبنا أهملناه كسقط المتاع؟..

كثيرا ما كنت أراه يحاور نفسه مؤديا بيديه حركات غريبة تشبه تلك التي يستخدمها أمثاله من كبار السن في محاورة محدثيهم. الفرق انه كان يحادث البحر والساحل والنوارس والسماء ..وهي في نظره بلا شك افضل من بني

البشر ؛ لأنه لا ترفض الاستماع لحكاياته وأحزانه.

اقتربت منه ذات يوم علّه يحدثني ففاجأتني نظراته النارية الغاضبة من غريب افسد عليها متعة النظر إلى زرقة البحر وبياض النورس ثم ما لبثت يداه أن حلتا محل العينين في إبداء الانزعاج ؛ فأسرعت بالابتعاد ؛ لكني لم اغفل عن متابعته خلسة من سطح بيتي الذي كان لحسن الحظ قريبا من ذلك الجرف الصخري .

وكان من عادة العجوز أن يأتي على تلك الصخرة صباح كل يوم فيجلس على الظهيرة ثم ينصرف فلا يعود إلا مع الأصيل ليركن على صخرته يبادلها أشواقه و حكاياه ويظل كذلك إلى أن تظلم السماء فينسحب في هدوء ..حافرا بعصاه حفرا صغيرة في الرمال.

كثر الكلام عن شخصه .. فهو غريب عن البلدة وليس من أهلها..الشيخ جمعة رشيد الحارة رجح أنه عسكري البرج الذي اختفى منذ ثلاثين عاما في ظروف غامضة. وربيعة معلمة القرآن رأت انه قد يكون عبدا صالحا من أولياء الله الصالحين..أما حماديه الزطي مختن الصبيان فكان من رأيه أنه خادم أحد السادة الكبار وقد فر من بيت الموالي قبل عشرات السنين.

لم يكن أحد يعرف حقيقته على وجه الدقة ولذلك لقبوه بالمغيّب .الأطفال كانوا يخافونه وينسجون حوله القصص فمن قائل أنه ثقف يأكل أشواك الأشجار .. ومن قائل أنه يركب ضبعة في الليالي التي يختفي فيها القمر ويتوارى عن الأنظار ..وقد أقسم (علّوي المجينينة) أنه رآه طائرا على جناح نسر عظيم ذات ليلة فوق البحر.

وفي يوم من أيام يناير/ كانون الثاني الباردة لمحت العجوز المغيّب على صخرته الأثيرة وقد لف جسده بعباءة بالية يتقي بها برودة الطقس وكان سعاله المتواصل يتهادى إلى أذني فأشفق عليه ..وأعجب من إصراره على البقاء معرضا نفسه لنسائم البحر القاسية ..بقي العجوز كعادته ملتصقا بتلك الصخرة حتى اسودّت السماء فحال بيني وبين رؤيته ظلام حالك وما كنت أشك في عودته إلى مخدعه كما اعتاد كل ليلة .. إلا أن الحقيقة التي عرفتها بعد ذلك أنه بقي ليلته تلك هناك لم يبرح صخرته قط رغم أن عاصفة يناير ية هوجاء هبت ليلتها وكانت قوة الريح من الشدة بحيث أثارت زوبعة بحرية أطاحت ببعض الأشجار المعمرة وأمطرت السماء ليلتها كما لم تمطر من قبل .

في غبش الصباح التالي خرجت أتمشى صوب الجرف الصخري ..وآثار مطر البارحة لا تزال واضحة من حولي .وعندما اقتربت من صخرة العجوز وجدتها متشظية وبقربها بقايا عباءة وعصا .. بينما الأمواج تتلاحق والنوارس تطير .



نوف السعيدية

من الوجوه الجديدة في القصة القصيرة في السلطنة

نوبه !

بالأمس كتبت واحدة عن « فتاة جميلة، ترقص تحت المطر، والخلخال في قدمها اليسرى يتناغم مع وقع القطرات، هبوطها على الأرض يجعل الماء راقصا هو الآخر، ترتفع القدم فيجتمع الماء، ثم تضربه بنعومة ليتقافز متفرقا. الفتاة الجميلة مبتلة تماما لكنها تواصل الرقص.

شعرها الطويل والذي صار الماء يتسرب من خلاله. يبدو كنهر من الذهب يصب تحت قدميها. يشتد المطر.. وتستمر، يهب نسيم بارد.. وتستمر. لا شيء بينها والسماء، نقية هي الآن، كامرأة تصلي. طاهرة كالمطر الذي يغسلها، مغرية كالطريق الفارغ الذي يسحب أصابعها لنهايته. تدور فيولد نهار بارتفاع ذراعها للأعلى، ويحل ليل بهبوط الأخرى للأسفل، هكذا يمكن لصغيرة أن تضع قوانين الوقت، كما شائت ذراعاها. إلى أن يقتلها والدها لسبب ما.»

انتهت!

***

لابد أن أتوقف عن كتابة هذه القصص اللعينة، كل مشهد فيها يظل يدور ساعات في خاطري، لا يزول إلا بعد أن أحاكيه. لقد فقدت القدرة على التركيز في أي شيء ، بل وفقدت الاهتمام بأي شيء سوى كتابتها ومن ثم إعادة قرائتها مرارا ومرارا. أتعرف أنني لم أذهب إلى الجامعة طوال هذا الأسبوع؟ أصبحت أفوت محاضراتي، وأنسى مواعيد الأكل والنوم! حتى برامج الحيوانات التي كنت أفضلها على أي شيء، ما إن أبدأ في متابعتها حتى تتسلل إلي أحداث القصة من خلال العشب والأشجار والأنهار، فلا انتبه لما تحكيه الشاشة إلا في المشهد الذي يأكل فيه الأسد غزالا، أو يغرق جاموس في البحيرة.

لم أتمم قصتي الأخيرة بعد، وها أنا اليوم أرتدي خلخالا سخيفا في قدمي، أدق الأرض فيصدر صوتا، يذكرني بالحية ذات الأجراس. هل سمعت من قبل الصوت الصادر عن ذيل الحية ذات الأجراس؟ لا أعتقد.. فأنت لا تحب

برامج الحيوانات، ولكني أحبها كثيرا، وسأترك كتابة القصص وأتفرغ لمتابعتها بعد أن أتخلص من هذه السلسلة النحاسية الغبية.

***

معقدة! أنا! .. أتذكر ذلك اليوم، حين اتفقنا أن نلتقي في حفل توقيع كتاب "ما بقي في الإنسان من أسلافه" كان كتابا جيدا ولا شك، يتكلم بجرأة عنا، نحن القرود التي شائت المصادفة البيولوجية أن ننطق، ونفكر، ونرتدي ملابس وخلاخل، ونكتب قصصا نتقمصها. فكرتُ بأنه من السخيف أن أقف في الطابور لآخذ توقيع كاتبه الأشقر، ماذا إذا ابتسم برضًا معبرا عن سعادته بالإنجاز.

أقسم أني سأقتله، لا مشكلة لي مع سعادته، مشكلتي بأن يشعر أنه مركز الإهتمام، هذا شعور يقتل الإنسان، ولو تقمصه للحظة واحدة، لابد أن تكون غير راض عن نفسك، بل يجب أن تحتقر نفسك إذا أردت تقبل هذا العالم، يجب أن تكون قمامة لتشعر أن وجودك في هذا المكب الممتد من البحر إلى البحر هو أمر طبيعي وعادل. أردتُ أن توقعه أنت لي لكن شجاعتي خذلتني. وضعت الكتاب في الحقيبة، وإذا بك تمد يدك بالكتاب وتقول: "هلا وقعتِ لي، طابوره أطول من طابورك».

سألتك :"لماذا ؟». لم أكن أريد أن أعرف دوافعك، كنت راغبة بمعرفة دوافعي حين فكرت بذات الأمر، أردتك أن تساعدني على فهم ما أريد، ظننتك أبسط مني، وأن بإمكانك أن تجيب عن سؤال أعجز عن إجابته. كنت مظللة، سألتك "لماذا؟» أنت الذي اخترت أن تفهم سؤالي على

أنه رفض. كنتَ أجبن مني، كان بامكانك أن تقول شيئا، أي شيء كان بإمكانك أن تقول. كأن تقول ما قالته البطلة في قصة الأسبوع الماضي "لو مات الكاتب غدا وأنا أشرب قهوتي، سأستمر في شربها، وسأذهب لعملي، وأمارس الرياضة، وأفعل ما أفعله كل يوم، وحين ألتقي بك مساءً سأخبرك وأقول رحمه الله، وستهزين رأسك ثم ينتهي الأمر.

لكن لو فقدتك يومًا سأحب أن أحتفظ بشيء يخصك". يا أخي قل "لأن هذا ما أشعر أني أريده ببساطة" ثم تنام الليل وأنت مرتاح، لكنك لم تفعل. ألا تعلم أننا لا نسأل الآخرين إلا لنجيب أنفسنا؟! " نوبه؟"، نعم نوبه اقترحت على نفسك شعورا واهما بأنك غير مرغوب، وانتظرت اعتذاري. كل ذلك وتقول أنني أنا المعقدة، معقدة بسبب أفعالك، التي أجاهد لوحدي في تحليلها .

هل أخبرك بما خطر في بالك حينها؟ الخيانة، هكذا أنتم دائما أيها الذكور، مع أي سوء فهم تظنون أن هناك ذكرا آخر ينافسكم. وإذا كان هذا الذكر متكبرا تماما كحالتك، فسينسحب مدعيا أنه لا يبالي. نعم أيها المغرور المهزوم، انسحبت حتى عدتُ إليك، أو بمعنى آخر أعطيتك إشارة التقدم، لكنك أبدا لم تسألني عن ما كنت تؤمن به من وجود رجل آخر. إما لأنك تعتقد بوجوده فتكون مناقشة الأمر شيء محرج لكلينا، أو أنك تظن أنك الوحيد الذي يعجبني!

إذا دعني أخبرك أن إناث العديد من الحيوانات تقوم بالتزاوج مع أكثر من ذكر، هذا يمنح فرصة لصغارها أن يكونوا متنوعين جينيا. وهل انثى

الإنسان إلا حيوان يريد أن يمنح حضوره وأفكاره تنوعا. دعني أشرح الأمر أكثر. بالنسبة لك مثلا، أنا المعقدة الثائرة وجاذبيتي - واسمح لي أن اتحدث عن شيء يخصني بهذه الحيادية- أقول أن جاذبيتي تنبع من مزاجي المتقلب، الذي يملأ حياة قاضٍ حكيم، خبير بالناس، كثير التأمل، وهادئ المزاج مثلك، ويمنحها الحياة. فارق العمر بيننا يمنح هذا الإطار -إطار الصغيرة الممتلئة المرحة، والحبيب الدافئ العجوز- يمنحه الصلابة، ألا نستحق أن نكون في قصة!

لكن ألا تعتقد أنني بحاجة إلى تغذية الشعور بالندية، أكون في علاقة أشعر فيها بأني أكثر من تابع، أنا الند، والمسير في كثير من الأحيان، شخص أقل حكمة، يسمح لي بالتشاجر معه، ومخاصمته، وكل ما في العلاقات العادية من تهور وقلة نضج. ولا يستخدم كلمة "نوبه" أبدا أبدا، ربما لا يكون عمانيا حتى، أخبرني الآن أليست هذه مقدمة جيدة للاعتراف بأني أخونك!

حان دورك عليك أن تفعل ما يفعله الأسد حين يقتل الصغار التي يشك بأنها ليست منه. أطلق العنان للحيوان الذي بداخلك. قلب الفساتين التي ألبسها، واقتل أي شيء لا ألبسه لك، لأني سألبسه لغيرك.

إلى أين تذهب؟ لم أكمل حديثي، حسنا إذهب أيها الجبان وأنا سأكمل كتابة قصتي عن المرأة التي تخون زوجها العجوز مع رجل لا يقول "نوبه"!

***

الفهرس

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمد بن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبوزيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع	شعر	خميس بن جمعه المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة التغرود	شعر	خميس بن جمعه المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أوهيون ترجمة/ أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط 2)	قصص	بشرى خلفان
15	نوارس الحكايات	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعرشعبي	محمد الراسبي
17	اشكاليات الشعر العربي	دراسات	رقية بنت سيف البريدية
18	القافر	رواية	د. خالد الكندي
19	أدب الرحلات	دراسات	مريم الغافرية
20	مراثي زهرة الليمون	شعر	سالم الحميدي
21	التشكيل الفني في شعر أبي مسلم البهلاني	دراسات	د. أحمد عبدالمنعم حالو

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لآلىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب جائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان



حكايات عمانية

لا تتوسم هذه الاختيارات القصصية التأريخ لمسار القصة القصيرة في سلطنة عمان، ولا تخضع لرؤية نقدية، سوى مقارباتها للمكان.
عشرون حكاية عن المكان العماني، أو هذا المكان وفق رؤية عشرين من كتّاب القصة فيه، كيف رأوه، وحكوه.. وفق نضج تجربتهم، أو حداثتها، لتفصح بدرجات متفاوتة، عمّا قرأته في المكان لتكتبه عشرون قصة عمانية.. جاء اختيارها خارج الحسابات والنتاجات والمستويات.



ISBN 978-99969-55-29-7



بيت الغشام
للنشر والترجمة